صورة الإسلام
في الخطاب الغربي

الناشر: دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة – ج. م. ع
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg

في ظلال الإسلام (٦)

صورة الإسلام في الخطاب الغربي

المفكر الإسلامي

الدكتور محمد عمارة

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠

مُقَدِّمَة

إذا كانت مَقَاصد الاستعمار والإمبريالية ـ قديمًا وحديثًا ـ هي : احتلال الأرض ، ونَهْب الثَّروات .. أي تحقيق « المصالح المادية » من وراء هذا الاستعمار .. فإن « المصالح » لا تسير ـ وَحْدَها ـ عارية مُجَرَّدة من « الأفكار .. والأيديولوجيات .. والعقائد .. والفَلْسَفات » .. وإنما لا بد لهذه « المصالح المادية » ـ التي هي المقاصد الحقيقية للاستعمار ـ لا بد لها من « فكر » يُغَلِّفها ، ويُقْنِع بها شعوب البلاد الاستعمارية ، كي تضحي ـ هذه الشعوب ـ في سبيل النهب الاقتصادي ، التي تمارسه الرأسمالية المتوحشة في تلك البلاد .

لقد غلف الإغريق والرُّومان والبيزنطيون غزوتهم القديمة للشرق ـ تلك التي دَامت عشرة قرون .. قبل ظهور الإسلام ـ بدعاوى « تفوق » ـ ومن ثم « سيادة » ـ العنصر اليوناني والروماني ـ فهم ـ وحدهم « السَّادة .. والأشراف .. والأحرار » .. ومَنْ عَدَاهم « برابرة .. وعبيد » ! .. وبمزاعم تَفَرُّد حضارتهم ـ في الفلسفة .. وفي الثقافة الهلينية .. وفي القانون ـ ومن ثم حاولوا تغليف المقاصد والمصالح المادية لاستعمارهم وقهرهم شعوب الشرق وحضاراتها بهذا « التفوق الفكري » المزعوم !

وكذلك صَنَعت الغزوة الصَّليبية الغربية في العصور الوسطى ، تلك التي دامت قرنين من الزمان [٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ = ١٠٩٦ ـ ١٢٩١م] .. فحتى تستر الكنيسة الكاثوليكية ـ وتغلف ـ المطامع الاستعمارية المادية ـ ومعها فرسان الإقطاع الأوربيون .. والتجار والمرابون في المدن التجارية الأوربية ـ جنوة .. ونابلي .. وبيزا ـ الذين مولوا الحملات الصليبية ليستولوا على تجارة الشرق ، وطرق التجارة الدولية ... حتى يستروا المقاصد والمصالح المادية من وراء غزوهم للشرق المسلم « الذي تُدِرُّ أرضه لبنًا وعسلاً .. والتي تُحاكي خزائنها ـ التي لا تحصى ـ الأملاك السماوية » ! ـ بتعبير البابا الذهبي « أوربان الثاني » [١٠٨٨ ـ ١٠٩٩م] الذي أعلن تلك الحروب ـ صنعت ـ هذه الكنيسة ـ (الأغلفة الفكرية والدينية » التي تحدثت عن تخليص الأرض المقدسة ،

وتحرير قبر « ابن الله » من اغتصاب العرب البدو والمتوحشين .. غير المؤمنين !!

- بل لقد صنعت هذه الكنيسة - وقَسَاوستها وشعراؤها - الصورة الزائفة والعجيبة والغريبة للإسلام .. ورسوله - .. وللمسلمين .. وذلك لتهيئة مشاعر الغوغاء في البلاد الأوربية المسيحية ، وشحن غرائزهم ، وحشد جموعهم - وراء القساوسة - لمحاربة أقوام بينهم وبينهم الآلاف المؤلفة من الأميال ! .

لقد صوَّر « القساوسة - الشعراء » - في ملاحمهم الشعبية - المسلمين : عبدة الثالوث :

١ - أبوللين .. ٢ - وتير فاجانت . ٣ - وحوميت (محمد) !!

وذلك على الرغم من أن التوحيد الإسلامي قد بلغ أعلى مراتب التنزيه والتجريد .. وصوَّروا رسول الإسلام « كاردينالا كاثوليكيًا » ، رَسب في انتخابات البابوية ، فأحدث أخطر الانشقاقات في تاريخ الكنيسة المسيحية !!

واستباح كبار فلاسفتهم - حتى القديسين منهم ! - مثل « توما الأكويني » [١٢٢٥ - ١٢٧٤م] و « مارتن لوثر » [١٤٨٣ - ١٥٤٦م] كل المحرمات الأخلاقية .. وتعدوا كل حدود اللياقة .. عندما صوروا رسول الإسلام ، فقالوا عنه : « إنه خادم القاهرات ، وصائد المومسات !! وأنه قد أغوى الشعوب من خلال وُعُوده الشهوانية .. وأنه عاش حياة داعرة !! ولم يؤمن به إلا البدو المتوحشون » !!

بل لقد صنع « مارتن لوثر » - زعيم الإصلاح الديني ! - الصُّور الأسطورية حتى « للقهوة التركية » .. فسمَّى حبتها « حبة محمد » ! وحرَّمها على الجنود المسيحيين المحاربين للأتراك العثمانيين ، بدعوى أنها مخدرة لهؤلاء الجنود !!

كل ذلك - وغيره كثير .. وكثير ليصنعوا « الصورة الزائفة » عن الإسلام ورسوله - ﷺ - كي يتم التحريض الغوغائي والشحن لغرائز الدهماء الأوربيين في حربهم ضد عالم الإسلام .. وبعبارة « مارتن لوثر » - التي تُحاكي فلسفة الإعلام النازي عند « جوبلز » [١٨٩٧ - ١٩٤٥ م] - : « فإن على القساوسة أن يخطبوا أمام الشعب عن فظائع محمد - [كذا] - حتى يزداد المسيحيون عداوة له ، وأيضًا ليقوى إيمانهم

بالمسيحية ، ولتتضاعف جَسَارتهم وبَسَالتهم في الحرب ضد الأتراك المسلمين ، وليُضَحُّوا بأموالهم وأنفسهم في هذه الحروب » !! . وكذلك صنع « دانتي » [١٢٩٥ - ١٣٢١م] شاعر النهضة الأوربية .. وصاحب الكوميديا الإلهية - عندما صوَّر رسول الإسلام - وعليّ بن أبي طالب ، في صورة أهل الشقاق ، مُقَطَّعة أجسامهم ، ومُشَوَّهة أجسادهم ، في الحفرة التاسعة في ثامن حلقة من حلقات الجحيم !!

وهكذا أصبحت صناعة الصورة الزائفة والجاهلة هي « بضاعة » الجهالة الكنسية - في الحقبة الصليبية - لتثبيت « إيمانهم » .. وأقدامهم في الحرب الصليبية التي شنوها لاغتصاب الشرق ، وأرضه التي تُدِرُّ لبنًا وعسلا ، والتي تُحاكي خزائنها وكنوزها فردوس السماء !! . ولقد ظل هذا هو دَيْدَن الغرب الاستعماري حتى في القرن الواحد والعشرين .. فلتبرير الغزو الغربي - المعاصر - لعالم الإسلام .. ولتسويغ إقامة القواعد العسكرية الغربية على أرض الإسلام ، ونَشْر الأَساطيل في بحارنا ومحيطاتنا .. لتسويغ ذلك - وتبريره - تتم « صناعة الصورة الزائفة » ، التي تجعل « الإسلام : إرهابًا » ! .. والتي تجعل المجاهدين في سبيل تحرير أوطانهم « إرهابيين .. متوحشين » !!

إذن .. هي « صناعة الصورة الزائفة الجاهلة » ، التي تتخذ شكل « الفِكر .. والأيديولوجية » .. وحتى « عقائد الدين » - والتي وَصَلت في « مواعظ » أحد قساوسة اليمين الديني في أمريكا ، حد المساواة بين رسول الإسلام - وبين « الشيطان » !! . كل ذلك لشحن الغرائز ، وتجييش الجيوش الزاحفة لاحتلال الأرض ونَهْب الثروات .

ولكشف حقيقة هذه الصناعة الغربية - صناعة الصورة الزائفة والجاهلة للإسلام ورسوله وأُمَّتِه وحضارته - التي تقوم عليها اليوم « مؤسسات » و « خبراء » .. نقدم هذا الكتاب .. سائلين المولي - سبحانه وتعالى - أن يتقبله خالصًا لوجهه .. وأن ينفع به .. إنه خير مسئول وأكرم مجيب .

دكتور / محمد عمارة

القاهرة : محرم سنة ١٤٣١هـ

يناير سنة ٢٠١٠م

تمهيد

في الحديث عن « صورة الإسلام » وأمته وحضارته في الخطاب الغربي ، لا بدّ من التقديم بين يدي هذا الحديث بعدد من المقدّمات :

المقدمة الأولى :

أننا لسنا بإزاء « صورة » واحدة ، لأن الغرب ليس كتلةً واحدةً صَمَّاء ، ومن ثَمَّ فإننا لسنا بإزاء خطاب غربيّ واحد فيما يتعلق بالإسلام .

وهذا الموقف الذي يميّز بين القُوَى والتيارات وألوان الخطاب عن الإسلام ، في الحضارة الغربية ، ليس مجرد « ضرورة مصلحية » يقتضيها البحث عن الأصدقاء ، وتجنب تكثير الأعداء . وهي ضرورة مشروعة ومطلوبة . وإنما هو موقف نابع من « العدل » الذي يعلمنا إياه ويفرضه علينا القرآن الكريم .

ونحن نقول ، للذين يُسَطِّحون القضايا العميقة ، ويُبَسِّطُون الأمور المعقَّدة والمركَّبة ، عندما يرددون عبارة : « إنَّ الكفرَ ملةٌ واحدة » ، نقول لهم : ولكن الإسلامَ لا يضع كلَّ عالم الكفر في سلَّة واحدة ، ولا في مرتبة واحدة ، وإنما ميّز الإسلام بين المشركين وبين الكِتَابِيِّين ، بل إن الإسلام لم يضع المشركين جميعًا في سلَّة واحدة ، وإنما ميّز بين المحاربين منهم وبين المعاهدين الذين لم ينقضوا المسلمين شيئًا من العهود التي تعاهدوا معهم عليها ، فدعا إلى قتال المقاتلين من المشركين ، ودعا إلى الوفاء بعهود المعاهدين من المشركين ، بل ومَيَّزَ الإسلام بين شرك الجاحد للحق الذي يعرفه ، وبين شرك الجاهل ، فإذا

استجار هذا المشرك الباحث عن المعرفة ، فعلى المسلمين إجارته وتقديم المعرفة إليه ، ثم إيصاله آمنًا إلى مأمنه ، وتركه لضميره دونما إكراه ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَعْلَمُونَ ﴾ [التوبة : ٦] .

بل لقد ميّز الإسلام بين الدهريين ، الذين استبدلوا الدهر بالخالق – سبحانه وتعالى – ، وبين المشركين الذين لم يجحدوا وجود الخالق وخلقه للخلق ، لكنهم أشركوا مع الخالق الوسائط التي زعموا أنها تقربهم إليه زُلْفى ! .. وتحدَّثت آيات القرآن الكريم عن هذا التنوع في أصناف المشركين ، فصاغت المنهاج العلميّ في دراسة الواقع ، والموقف العادل في التعامل مع الآخرين .

وكذلك صنع المنهاج الإسلامي في التعامل مع الكتابيين ، فميز بين اليهود ـ الذين هم أشد الناس عداوة للذين آمنوا ـ وبين النصارى ـ الذين هم أقرب مودَّة للمؤمنين ـ ثم هو لم يضع جميع النصارى في سلَّة واحدة ، وإنما ميّز بين الموحِّدين منهم ، الذين يتعبَّدون على شريعة عيسى – عليه السلام – ، وإذا سَمِعُوا ما أُنزل إلى الرسول ﷺ تَرى أعينهم تفيضُ من الدمع مما عرفوا من الحق . يميّز الإسلام بين هؤلاء النصارى ، وبين النصارى الذين عَبَدوا المسيح وأمه والأحبار والرهبان من دون الله ، فوُصِفوا في القرآن بصفات الكفر ، بل وبالشرك أيضًا .

وكذلك صَنَعَ المنهاج القرآنيّ مع فصائل اليهود ومذاهبهم ، فمع حديثه عن عداوتهم الأشد للمؤمنين ، نجد القرآن يبلغ قمة العدل

عندما يقولُ إنهم : ﴿ لَيْسُوا سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۞ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ وَمَا يَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [آل عمران : ١١٣ - ١١٥] . بينما منهم الذين لا يتناهون عن مُنكَرٍ فَعَلُوه ﴿ لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ ۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ۞ كَانُوا۟ لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [المائدة : ٧٨ - ٧٩] .

ويؤكِّدُ القرآن الكريم هذا المنهاج العادل في التعامل مع الآخر الكتابيّ عندما يستخدمُ حرفَ التبعيض - « مِن » - للتمييز بين فرقائِهم ومذاهبهم ، فيقول : ﴿ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [آل عمران : ١٩٩] . وعندما يتحدث عن ﴿ طَآئِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [آل عمران : ٦٩] أو ﴿ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ﴾ [البقرة : ١٠٩] دونما إطلاق أو تعميم .

ومع اشتراك الفرس والروم - يوم ظَهَرَ الإسلام - في التجبُّر والظلم والهيمنة والاستعمار ، وإعلان الإسلام عن سَعْيه لتحرير الأرض من استعمارهم ، وتحرير الضمائر من تجبرهم وإكراههم ، إلا أن الإسلام لم يُسوِّ بين هذين الطاغوتين - الفرس والروم - فَمَيَّزَ القرآن بين الكتابين منهم - الروم - وبين المجوس - الفرس - عندما تَحَدَّثَ عن حُزْن المسلمين لتغلُّب الفرسِ على الروم ، وفَرَحِهم يوم يأذن الله بانتصار الروم النصارى على الفرس المجوس : ﴿ الٓمٓ ۞ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۞ فِىٓ أَدْنَى

ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ * فِى بِضْعِ سِنِينَ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ * بِنَصْرِ ٱللَّهِ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴾ [الروم : ١ - ٥] .

ففي إطار قوى التجبر والهيمنة هناك أيضًا فروق لا يغفلها منهاجُ الإسلام في رؤية الآخرين ، وفي العلاقات مع هؤلاء الآخرين . ولقد جاء فقهاءُ الإسلام وفلاسفته ، انطلاقًا من هذا المنهاج القرآني ، فَمَيَّزُوا أصناف الكفر ودرجاته ، فهناك كُفْرُ جحود للحقِّ الذي عَرَفَه الجاحدون ، وهناك كُفْرُ جهلٍ وتقصير ، وهناك كُفْرُ مَن بلغته الدعوة ، وكُفْرَ من لم تبلُغْه الدعوة ، أو بَلَغَتْه مُشَوَّهَة ، دون إقامة الحجة عليها وإزالة الشبهات عنها . وفي ذلك يقول حجَّةُ الإسلام أبو حامد الغزاليّ [٤٥٠ - ٥٠٥ هـ / ١٠٥٨ - ١١١١ م] : « إنَّ أكثر نصارى الروم والترك في هذا الزمان تشملهم الرحمة إن شاء الله – تعالى – ، أعني الذين هم في أقاصي الروم والترك ، ولم تبلغهم الدعوة ، فإنهم ثلاثة أصناف :

– صِنْف لم يبلغهم اسم محمد ﷺ ، أصلاً ، فهم مَعْذُورُون .

– وصِنْفٌ بلغهم اسمه ونَعْتُه وما ظَهَرَ عليه من المعجزات ، وهم المجاورون لبلاد الإسلام والمخالطون لهم ، وهم الكفار الملحدون . وصِنْف ثالث بين الدرجتين ، بلغهم اسم محمد ﷺ ، ولم يبلُغهم نعتُه وصِفَتُه ، بل سَمِعوا أيضًا منذ الصبا أن كذَّابًا مُلَبِّسًا اسمه محمد ادَّعى النبوّة ، كما سَمِعَ صبياننا أن كذَّابًا يقال له « المقفع » (١) بعثه الله تحدى

(١) الإشارة إلى عبد الله بن المقفع [١٠٦ - ١٤٢ هـ / ٧٢٤ - ٧٥٩ م] كان في الأصل مجوسيًا فأسلم ، وألّف وترجم في الفلسفة ، وقتل بتهمة الزندقة .

بالنبوّة كاذبًا . فهؤلاء عندي في معنى الصِّنف الأول ـ الذين لم يبلغهم اسم الرسول ـ فإنهم مع أنهم سمعوا اسمه ، سمعوا ضد أوْصَافِه ، وهذا لا يُحَرِّك داعية النظر في الطلب » (١) .

بل وتَحَدَّثَ الفقهاءُ ، أيضًا ، عن « كُفْر النعمة » الذي هو مغاير لـ « كفر الاعتقاد » ، وقالوا بوجود « كُفْرٍ دون كُفْرٍ » ، وبكفر « المقولة » دون كُفْرِ « القائل » ، الذي قد يكون لديه تأويل حتى ولو كان فاسدًا . فلم يضعوا كلَّ ألوان الكفر في سلَّة واحدة ولا في فسطاط واحد ، كما يَصْنَعُ الذين يُبَسِّطون أمور التعامل مع الآخرين .

* * *

ولقد وَضَعَ علماء مدرسة الإحياء والتجديد الحديثة ، في بلادنا ، وقادة التحرُّر الوطنيّ ، الذين انطلقوا من هذا المنهاج الإسلاميّ لتحرير بلادنا من الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة ، وضعوا هذا المنهاج الإسلاميّ ـ الذي لا يضعُ كلَّ الآخر في سلة واحدة ـ في الممارسة والتطبيق ، وهم يتعاملون مع الاستعمار الغربيّ لعالم الإسلام ، ومع الخطاب الغربيّ الذي كان يُمَهِّدُ ويُبَرِّرُ لهذا الاستعمار .

فجمال الدين الأفغاني [١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ / ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧م] قد تَحَدَّث عن هذا المنهاج في المقال الافتتاحي لمجلة « العروة الوثقى » ـ التي صَدَرَت سنة [١٣٠٠ هـ / ١٨٨٣ م] لسان حال

---

(١) الغزالي ، أبو حامد . فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة . ـ القاهرة ، ١٩٠٧م . ص ٢٣ .

الجمعية « العروة الوثقى » ـ التي تكوَّنَتْ عقودُها وخلاياها في الشرق الإسلاميّ ـ وذلك عندما تحدَّث عن تحالف هذه الجمعية مع الأحرار الأوربيين في البلاد الاستعمارية ذاتها ، فقال : « **ولما كانت بدايتهم تَسْتَدعي مساعدة مَن يضارعهم في مِثل حالهم ، رَأَوا أن يَعْقِدُوا الروابط الأكيدة مع الذين يَتَظلمَلُون من مُصَابهم ، ويحبون العدالةَ العامَّة ، ويحابون عنها من أهل أوربا** » (١) .

ولقد سارت الحركات الوطنية في بلادنا على هذا المنهاج ، فوجدْنَا مصطفى كامل باشا [١٢٩١ ـ ١٣٢٦ هـ / ١٨٧٤ ـ ١٩٠٨ م] ـ باعث الوطنية المصرية ضد الاحتلال الإنجليزي ، وداعية الجامعة الإسلامية ، وزعيم الحزب الوطنيّ ـ يتحالف مع القوى الحرة والليبرالية في فرنسا وأوربا ، بل ويراهن على التناقضات بين الاستعمار الفرنسيّ والاستعمار الإنجليزيّ في جَلْب التأييد لإجلاء الإنجليز عن مصر .

وعلى دَرْبِ مصطفى كامل باشا ، سار خليفته في زعامة الحزب الوطنيّ ـ بمصر ـ محمد بك فريد [١٢٨٤ ـ ١٣٣٨ هـ / ١٨٦٨ ـ ١٩١٩ م] الذي لم يَكْتَفِ بالتحالف مع الدولة العثمانية ، والحركات الوطنية الإسلامية ، وإنما تحالف أيضًا مع الاشتراكيين الأوربيين ، وشارك في المؤتمرات التي عقدوها ، بل وَرَاهَن على التناقضات بين الألمان وبين الإنجليز في هذا الميدان .

---

(١) جمال الدين الأفغاني . الأعمال الكاملة / دراسة وتحقيق محمد عمارة . ـ بيروت ، ١٩٨١ م . ج ٢ ، ص ٣٤٢ .

وعلى الدَّرْب نفسِه سارت حركاتُ التحرُّر الوطنيّ المعاصرة في بلادنا ، عندما اسْتَفَادَ كثيرٌ منها من التناقضات التي قامت إبان الحرب الباردة بين المعسكر الاشتراكيّ وبين المعسكر الرأسماليّ ، سواء أكانت هذه الاستفادة في التسليح ، أو في التصنيع ، أو في دَعْم قضايانا بالمحافل الدولية .

ذلك هو المنهاج الإسلاميّ في النظر إلى الآخر - كل آخر - وفي التعامل معه ، ومع الخطاب الصادر عنه ، فالبلاغ القرآنيّ القائل ﴿ ليسوا سَواء ﴾ هو عنوان المنهاج الإسلامي في هذا المقام .

وأما المقدّمة الثانية :

فهي أن الخطاب الغربي عن الإسلام وأمته وحضارته ، ليس مجرد « مقولات نظرية » ، ولا تعبيرات عن صور ذهنيةٍ مُجرَّدة ، وإنما هو بناء فكْريٌّ مركَّب ، نما عَبْرَ تاريخ الاحتكاك العنيف بين الغرب والشرق ، لا ليقف عند أفكارِ المفكرين وكتابات الكاتبين ونظريات المنظّرين ، وإنما ليكون التبرير المسوِّغ لهيمنة الغرب على الشرق ، واحتلال أرضه ، ونَهْبِ ما فيها من ثروات . فهو خطاب تبريريٌّ لتسويغ ممارسات لا أخلاقية ، تُجَسِّدُها الإمبريالية والاستعمار في أرض الواقع . وهذا الخطاب الغربيّ عن الإسلام وأمته وحضارته ، تتوجَّه به الدوائر الاستعمارية الغربية إلى العقل الشرقيّ ، لتغريب عقول شريحة من نُخَبِ مفكّرينا ومُثَقَّفينا الذين يَتَبنون هذه الصورة الغربية عن الإسلام وحضارته ، فيصبحون - بَيْننا - « عملاء حضاريين »

للغرب ، يُبَشِّرون بالتبعية للمركز الغربيّ ، على النحو الذي تَحَدَّث عنه جمال الدين الأفغاني عندما قال : « **إن المقلدين لتمدُّن الأمم الأخرى ليسوا أرباب تلك العلوم التي ينقلونها .. ولقد عَلَّمَتنا التجارِب أن المقلِّدين من كلِّ أمة ، المنتحلين أطوار غيرها ، يكونون فيها منافذ لتطرُّق الأعداء إليها ، طلائع لجيوش الغالبين وأرباب الغارات ، يُمَهِّدُون لهم السبيل ، ويفتحون لهم الأبواب ، ثم يثبتون أقدامهم** » (١) .

كما يتوجَّه الغرب الاستعماري بهذه الصورة التي صَنَعَها ويَصْنَعُها للإسلام وحضارته ، إلى شعوبه هو ، كي يُبَرِّرَ أمامها سُلوكَه العدواني الاستعماريّ ضد الشعوب التي يستعمرها ، وكي يخيف شعوبَه من الإسلام ، فيجرها إلى التضحية في معاركه ـ الفكرية والقتالية ـ ضد الإسلام وعالمه .

والآن .. وبعد نُمُوِّ الوجود الإسلاميّ في المجتمعات الغربية ـ بأوربا وأمريكا وأستراليا ـ غدا المسلمون في تلك البلاد يعانون معاناة مضاعفة من آثار ذلك الخطاب ، حتى لقد أصبحوا محرومين من مميزات الليبرالية الغربية ، وامتيازات الحريات والحقوق المدنية ، وغدوا متهمين لمجرد أنهم مسلمون ، ومحرومين من أبسط ثوابت وضوابط وشروط العدالة في المحاكمات أمام القضاء ـ إذ يحاكمون ويدانون « بأدلة سريَّة » لا يعلمون عنها شيئًا !! ـ بل وغدوا ضحايا

---

(١) جمال الدين الأفغاني : المصدر السابق . ص ص ١٩٥ - ١٩٧ .

لاعتداءات وإيذاءات مادية ومعنوية ، زادت في أمريكا بعد قارعة ١١ سبتمبر ٢٠٠١م ، أكثر من ١٦ ٪ عما كانت عليه قبل هذه القارعة - كما رَصَدَت ذلك منظمات أمريكية لحقوق الإنسان [١] - حتى ليوشك الخطاب الغربيّ ، والممارسات الغربية أن تُدْخِلَ المسلمين - لمجرد أنهم مسلمون - في دورة جديدة من دورات « محاكم التفتيش » التي نَصَبَهَا الغرب للإسلام والمسلمين عقب سقوط « غرناطة » ، واقتلاع الإسلام من الأندلس [٨٩٧ هـ / ١٤٩٢م] !

فنحن - إذن - بإزاء خطاب غربيّ عن الإسلام ، له آثار كارثية في أرض الواقع ، ولسنا بإزاء مجرد أفكار نظرية ، وصور ذهنية سلبية عن الإسلام .

والمقدمة الثالثة :

هي أن نَزْعة « المركزية الغربية » ، التي لا تَعْتَرف بالآخر غير الغربيّ - الدينيّ منه والثقافي والحضاري - بل ولا تعترف بالغربي الأبيض إذا كان مسلمًا ، كما هو حالها إزاء الأوربيين المسلمين في ألبانيا والبوسنة والسنجق وكوسوفا ومقدونيا وتركيا - إن هذه « النزعة المركزية الغربية » تلعب دورًا محوريًّا وكبيرًا في تراكم ثقافة هذا الخطاب الغربيّ

---

(١) في التقرير السنوي لمكتب التحقيقات الفيدرالية - بالولايات المتحدة الأمريكية - أن الاعتداءات على المسلمين في أمريكا كانت سنة ٢٠٠٠م ، ٢٨ حالة ، وارتفعت سنة ٢٠٠١ م إلى ٢٠٠٠ جريمة ، أي بنسبة ١٦٠٠ ٪ - صحيفة « الأهرام » / القاهرة في ٢٧ - ١١ - ٢٠٠٢ م . وفي تقرير المنظمة الأمريكية لحقوق الإنسان أن النسبة قد ارتفعت إلى ١٧٠٠ ٪ .

عن الآخر الإسلاميّ ، فَعَدَمُ الاعترافِ بالآخر فيه التبرير لإلغاء هذا الآخر ! وحتى إذا كان هناك اعتراف بالآخر « كأمر واقع » ، فإن عَدَمَ الاعتراف بشرعيته ومشروعيته وحقه في الوجود المتميز والمستقل ، يزكي دائمًا وأبدًا السعي إلى إلغائه وَطَيّ صفحته من الوجود . فالغرب الليبراليّ الرأسماليّ ظلَّ لأكثر من سبعين عامًا يَعْترف بالشمولية الشيوعية « كأمر واقع » ، ولكنه لم يعترف أبدًا بشرعيتها ومشروعيتها وحقّها في الوجود المستقل والمتميز . ولذلك ، ظلَّ موقفه الدائم هو موقف الساعي إلى إسقاط وَطَيّ صفحتها من الوجود ، وعندما تحقق له ذلك اعتبر هذا الانتصار « نهاية التاريخ » !

ولقد لَعِبَتْ هذه « النزعة المركزية » ـ نزعة عدم الاعتراف بشرعية ومشروعية الوجود الحُرّ والمستقِلّ والمتميز للآخر ـ لعبت الدور المحوريّ في التعبئة الفكرية والمادية لإلغاء وجود هذا الآخر ، ولتبرير وراثة ما في حَوْزَته من أوطان وثروات !!

بل لقد استعان الغرب ـ في سبيل تأكيد « نزعته المركزية » هذه ـ بالنظريات العلمية الزائفة ، مثل « الدارونية » ، التي زعمت أن الصراع هو قانون العلاقة بين الأحياء ، وأن البقاء للأقوى ، لأن الأَقْوَى هو الأَصْلَح . فَانْطَلَقَ الغرب الاستعماريّ من هذا الزيف لتبرير إلغائه لثقافات وحضارات الأمم والشعوب التي ابْتُلِيَت باستعماره لبلادِها .. بحجة أنها الضعيفةُ ، وأنّه الأقوى ، فلها الفناء ، وله وحده ولحضارته البقاء !! وفي سبيل تكريس هذا الزيف الغربيّ ، بلوز الغرب عِلمًا سَمَّاه « عِلْم الإنثروبولوجيا الاجتماعية » والخاص بدراسات « المجتمعات البدائية » ، التي هي ـ في عُرْف الغرب ـ

المجتمعات غير الغربية . فهي بدائية ، وهو المتقدِّم .. وهي الضعيفة ، وهو الأقْوى .. فلها الإبادة ، وله البقاء .. بحكم هذا الزيف الذي جعله الغرب « علمًا » !! والذي توجَّه « بخطابه » إلى شعوبه .. وإلى شعوبنا أيضًا !

وفي الموقف الغربيّ من الآخر الإسلاميّ تنهض هذه « النزعة المركزية » بالدور المحوريّ في اختراع الصور الغربية عن الإسلام ، وفي إذكاء روح العداء الغربيّ للحضارة الإسلامية ، وفي التبرير لحروب الغرب ـ الفكرية والقتالية ـ ضِد عالم الإسلام وأمته وحضارته .

وإذا كانت المواجهة ـ التاريخية والحديثة والمعاصرة ـ إنما هي قائمة بين « المشروع الغربيّ » الذي ينفي « المشروع الإسلاميّ » ، فإن هذا النفي الغربيّ للإسلام وحضارته له جذور عميقة في تصورات الثقافة الغربية عن الإسلام ، وهذه الجذور الرافضة والنافية للآخر الإسلاميّ حَيَّة وفاعلة ـ بل ونَامِيَة ـ حتى هذه اللحظات .

نجد ذلك في « المشروع الكنسي » الغربيّ ، الذي أعلن بلسان البروتستانت في « مؤتمر كولورادو » سنة ١٩٧٨م ـ ضرورة اختراق الإسلام ؛ لتنصير كل المسلمين ! كما أعلن هذا « المشروع الكنسي » ـ بلسان الكاثوليك ـ ضرورة أن تُصْبِحَ إفريقيا نصرانية سنة ٢٠٠٠م فلما خَابَ الرجاء غير الصالح ، أَجَّلُوا التاريخ إلى سنة ٢٠٢٥م ! وتعبر عن هذا « المشروع الكنسيّ » حتى فرنسا العلمانية بلسان رئيسها الأسبق « فلري حيسكار دي ستان » ، عندما أعلن استحالة قبول تركيا في الاتحاد الأوربيّ لأنها مسلمة ، والاتحاد الأوربيّ « نادي مسيحي » !

أمَّا « لسان » الغرب الأرثوذكسي ، فلقد مارس هذا النفي للإسلام بالمجازر والمقابر الجماعية على أرض البلقان والشيشان ، كما تمارسه الصهيونية - وهي امتداد غربيّ - مُتَحَالِفة مع الصليبية الغربية على أرض فلسطين !

بل إن كنائس الغرب - التي خانت نصرانيتها - لا تستحي عندما تُعْلِنُ هذا النفي للإسلام ، حتى في المؤتمرات التي « تحاور » فيها رموز الإسلام ، في عُقْرِ دار الإسلام !! ففي « مؤتمر الحوار الإسلاميّ المسيحيّ » الذي عُقِدَ بالقاهرة - بدعوة من « المنتدى العالميّ للحوار » - بجدة ، و « مؤتمر العالم الإسلاميّ » الذي انعقدت جلساته في فندق « شيراتون هليوبوليس » في ٢٨ ، ٢٩ أكتوبر سنة ٢٠٠١م ، رَفَضَ مُمَثِّلُ الفاتيكان ، نائب الأمين العام للمجلس البابويّ للحوار بين الأديان ، القس « خالد أكاش » ، ومُمَثِّلُ « مجلس الكنائس العالميّ » الدكتور « طارق متري » ، رَفْضًا التوقيع على البيان الختاميّ للمؤتمر ؛ لأنه وَضَعَ الإسلام - مع اليهودية والنصرانية - تحت وَصْف « الأديان السماوية الربانية » ، وقالا : « **إن وَصْفَ الإسلام كدين سماويّ وربانيّ ، لا يزال محلَّ خلاف لم يُحسم بعد** » !!

ولقد عَلَّقَ الدكتور يوسف القرضاويّ - وكان مشاركًا مع شيخ الأزهر في هذا المؤتمر - على هذا الموقف فقال : « **إنني لم أستغرب من توجُّس بعض رجال الدين المسيحي من وَصْفِ الإسلام بالربانية والسماوية . وإذا كان الفاتيكان والكنائس العالمية لا تعترفُ بالإسلام كدين سماويّ فلماذا نجتمع إذن ؟! وإذا لم يقرَّ رجال الدين المسيحيّ والفاتيكان بأن الإسلام**

دين ربانيّ فلا داعي من اللقاء والحوار .. » (١) .

إنهم يَعْتَرِفُون بالإسلام « كأمر واقع » ، ويُصَنِّفُونَه ضمن « الديانات الوضعية » ، غير السماوية وغير الربانية ، وذلك لتبرير السعي الكنسيّ الدائب والدائم لتنصير المسلمين ، وَطَيّ صفحة الإسلام من الوجود ، انطلاقًا من « النزعة المركزية » التي لا تعترف بالآخرين ، فَتَسْعى إلى إلْغَائهم ، بضمير مُسْتَرِيح !

كذلك نجد هذا النفي للآخر ، والرفض لمشروعية وُجُودِه المتميز والمُسْتَقِلّ ، في « المشروع الحضاريّ » الغربيّ ، الذي لا يَعْتَرِفُ بالتعدُّدية الحضارية العالمية ، وإن اعترف بالحضارات غير الغربية « كأمر واقع » ، فهو يَسعَى - بالتغريب وعولمة نموذجه الحضاريّ - إلى إلْغَاء هذه التعدُّدية الحضارية ، والانفراد الغربيّ بالعالم كله . وفي سبيل ذلك يَستخدم « نزعة صِدَام الحضارات ، وصِرَاع الثقافات » - كحتمية مَزْعُومة - لتبرير سيادة هذه النزعة المركزية على النطاق العالميّ .

وفيما يتعلَّق بالنفي الغربي للإسلام - على وَجْه الخصوص - يكفي أن نُشِير إلى كلمات المُسْتَشرق الفرنسيّ « جاك بيرك » [١٩١٠ - ١٩٩٥م] التي يقول فيها : « **إن الإسلام ، الذي هو آخر الديانات السماوية الثلاث ، والذي يدين به أكثر من مليار نسمة في العالم ، والذي هو قريبٌ من الغرب جغرافيًا ، وتاريخيًا ، وحتى من ناحية القِيَم**

---

(١) صحيفة « الأسبوع » - القاهرة في ٥ - ١١ - ٢٠٠١ م . وصحيفة « العالم الإسلامي » مكة في ١٦ - ١١ - ٢٠٠١ م . وصحيفة « عقيدتي » - القاهرة - في ٦ - ١١ - ٢٠٠١ م .

والمفاهيم .. قد ظلَّ ، ويظلُّ حتى هذه الساعة ، بالنسبة للغرب : ابن العم المجهول ، والأخ المرفوض .. والمنكور الأبديّ .. والمُبعد الأبديّ .. والمتهم الأبديّ .. والمشتبه فيه الأبديّ » ! [١] .

لقد قال « جاك بيرك » هذا الكلام المُعبِّر - وهو الخبير في الثقافة الغربية وفي الإسلام معًا - عن نفي الغرب للإسلام وحضارته وأمته ، كموقف ثابت ودائم ، وقَدَّمَ هذه الصورة للإسلام في الثقافة الغربية والحضارة الغربية والممارسات الغربية ، قبل « قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١م » بسبع سنوات ! وكأنه كان يَصِفُ « طوفان » ثقافة الكراهية السوداء التي انهالت على الإسلام وأُمته وحضارته عقب سبتمبر سنة ٢٠٠١م !!

فنحن أمام موقف ثابت ودائم ، من قِبَلِ المَشْروع الكنسيّ الغربيّ ، والمشروع السياسيّ والحضاريّ الغربيّ ، وهو موقف ينفي الآخر الإسلاميّ ، ليبرِّر العدوان الاستعماريّ والهيمنة الحضارية على عالم الإسلام .

* * *

تلك هي المقدِّمات التي رأيناها ضرورية بين يدي الحديث عن صورة الإسلام في الخطاب الغربيّ ، وهي مقدِّمات تُؤكِّدُ على ضرورة التمييز

---

(١) من حديث جاك بيرك في ٢٧ - ٦ - ١٩٩٥م . انظر : حسونة المصباحيّ . العرب والإسلام في نَظَر المستشرق الفرنسي جاك بيرك » ، صحيفة « الشرق الأوسط » - لندن - في ١ - ١١ - ٢٠٠٠م .

في الخطاب الغربيّ بين الحق والباطل .. بين الصواب والخطأ .. بين الإنصاف والتّزييف ، وذلك كثمرةٍ للتمييز في الغرب بين : « الإنسان الغربيّ » وبين « مشروع الهيمنة الغربيّ » ، فالمشكلة هي مع المشروع الغربيّ بشقيه : السياسي الاستعماريّ ، والكنسي التنصيريّ على وَجْه الحصرِ والتحديد ، وليست هناك مشكلة مع الإنسان الغربيّ ، ولا مع العلم الغربيّ ، على وجْه الإطلاق .

التاريخ الصانع للصورة

إن « الجدل » بين « الواقع » وبين « الفكر » هو حقيقة علمية ، لا تنفرد بها بعض الفلسفات الاجتماعية الغربية ، بل لقد سَبَقَ الإسلام إلى تقرير هذه الحقيقة فيما عرفناه من العلاقة بين آيات القرآن الكريم و « مناسبات » نزولها ، والعلاقة بين الأحاديث النبوية و « أسباب وُرُود » هذه الأحاديث ، وهذا « الجدل » بين « الواقع » وبين « الفكر » هو مما تكاد تلمسه العقول في الدراسات الاجتماعية لنشأة الأفكار وتطوُّرها .

ولقد كان « واقع » الاستعمار الغربيّ للشرق منبعًا أصيلًا لكثير من الصور الزائفة التي صَنَعَها الغرب للشرق ، وهي الصور التي عَادَت لتزكّي ولتبرِّر ، في المخيلة الغربية ، نزعة الاستعمار والاستعلاء والاحتواء والاستغلال .

ولأن تاريخ الاستعمار الغربيّ للشرق على ظُهُور الإسلام ، فلقد صَنَعَ الغرب الرومانيّ والبيزنطيّ للنصرانية المصرية والشرقية ، ولثقافة الشرق وحضارته الصور الزائفة التي بَرَّرَت القهرَ والاضطهادَ والإبادة التي مَارَسَها الرومان والبيزنطيون عشرة قرون ضد الشرق والشرقيين ، من « الإسكندر الأكبر » [٣٥٦ - ٣٢٣ ق . م] في القرن الرابع قبل الميلاد حتى « هرقل » [٦١٠ - ٦٤١ م] في القرن السابع للميلاد .

ولأن الإسلام هو الذي حَرَّرَ - بفتوحاته - أرض الشرق من الاستعمار والاستغلال الروماني البيزنطي ، وحَرَّرَ ضمائر الشرقيين من الاضطهاد والقهر الدينيّ والحضاريّ ، فلقد بَدَأَت الصورة الغربية المعادية للإسلام

وحضارته وأُمَّته ودولته وعالمه تَتَبَلورُ في الثقافة الغربية ـ الدينية والمدنية ـ منذ ذلك التاريخ . لقد كانت الحضارة الشرقية ، بنصرانيتها اليعقوبية ، هي « العدو البربريّ الهمجيّ » بنظر الرومان البيزنطيين ، فلما أصبحت الحضارة الشرقية إسلامية ، أصبحت هي العدو الجديد الذي حلَّت صورته محلَّ صورة العدوِّ القديم ، تمامًا كما صَنَعَ الإعلان الغربي عَقِبَ سقوط الشيوعية ـ في العقد الأخير من القرن العشرين ـ عن أن الإسلام هو العدوُّ الذي حلَّ محلَّ إمبراطورية الشر الشيوعية !

لقد بدأ العداء الغربي للإسلام منذ ظهور الإسلام وتحريره الشرق والشرقيين من هيمنة الرومان ، وفي هذا المقام يقول الكاتب والقائد الإنجليزي « جلوب باشا » [١٨٩٧ ـ ١٩٨٦م] كلمته التي توقظ النيام : « إن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد » !!

ومنذ ذلك التاريخ توالت محاولات الغرب إعادة اختطاف الشرق من الإسلام .

* فكانت **الموجة الاستعمارية الصليبية** التي دامت قرنين [٤٨٩ ـ ٦٩٠هـ / ١٠٩٦ ـ ١٢٩١ م] والتي شارك فيها الغرب كله ، بقيادة الكنيسة الكاثوليكية ، وتمويل المدن التجارية الأوربية ، وسيوف أمراء الإقطاع الأوربيين . ولقد انتهت هذه الموجة بالهزيمة على يد الفروسية الإسلامية ، التي اقتلعت قلاعها ، وهدمت حُصُونَها ، وأَزَالَت كلَّ آثارها .

* ثم جاءت الموجةُ التترية زاحفة على الشرق الإسلاميّ ، بدعوة من الصليبيين الأوربيين ـ الذي تَحالَفُوا مع الوثنية التترية ضد التوحيد

الإسلاميّ ! ـ ولقد هَدَّدت هذه الموجة التترية ـ التي كان يقود جيوشها نصارى نساطرة ! هددت الوجود الإسلاميّ ذاته ، ثم كانت هزيمتها الساحقة على يدي الفروسية الإسلامية في « عين جالوت » [٦٥٨ هـ ١٢٦٠م] ، ثم انتهت بانتصار الإسلام في عقول التتار وقلوبهم ، فدخلوا الإسلام وتَحَوَّلُوا إلى سيوف في معارك هذا الدين !

• ومنذ سقوط « غرناطة » [٨٩٧ هـ ١٤٩٢م] ونجاح الصليبية الأوربية في اقتلاع الإسلام وحضارته المشرقة وثقافته السمحة من الأندلس ، بدأت مرحلة جديدة في هذه الحرب الغربية على الإسلام وأمته وحضارته وعالمه ـ بدأت مرحلة الالتفاف حول العالم الإسلاميّ ـ مرحلة التطويق ـ مرورًا بسواحل إفريقيا الغربية والجنوبية ، ووصولاً إلى الأطراف الإسلامية في الجنوب الشرقي لآسيا ـ الفلبين والهند وأندونيسيا ـ وذلك تمهيدًا لضرب قَلْب العالم الإسلاميّ ـ الوطن العربيّ ـ بحملة « بونابرت » [١٧٦٩ ـ ١٩٢١م] على مصر [١٢١٣ هـ / ١٧٩٨م] .

وإبان هذه المرحلة ـ مرحلة الغزوة الاستعمارية الحديثة ـ تميز التحدّي الغربيّ عن الحقبة الصليبية الأولى بالغزو الفكريّ المصاحب لاحتلال الأرض ونَهْب الثروات ، أي بصناعة الصورة الغربية للإسلام وحضاراته وأمته ، تلك الصورة التي نَمَتْ مكوناتها لتزكي وتُبَرِّر للغرب نفي الآخر الإسلامي ، ولتشحن الشعوب الأوربية بالعداء للإسلام ، حَفْزًا لها على مواصلة الغزو والاحتلال لبلاد الإسلام .

وخلال هذه القرون ـ من طَمَعِ الغرب باستعادة الشرق من الإسلام ـ تَبَلْوَرَ الخطابُ الغربيُّ حَوْلَ الشرق ، على النحو الذي يخدم تحقيق هذه الاستراتيجية الاستعمارية الغربية ، وهو خطاب مُتنوع ومتكامل في الوقت ذاته ، مُتنوعٌ بتنوُّعِ الدوائرِ الصادر منها ، ومتكامل لتحقّيق هذه الاستراتيجية الغربية الواحدة ، ومُتنوعٌ كذلك بتنوّع الجمهور الذي يتوجّه إليه هذه الخطاب .

• **فالغرب الكنسي اللاهوتيّ** له خطاب دينيّ يَسْعى إلى تنصير المسلمين ، وحتى الدوائر العلمانية في النظم السياسية الغربية ـ بما فيها العلمانية الفرنسية المتطرفة ـ تدعم هذا المشروع الكنسيّ التنصيري وخطابه اللاهوتيّ ، لأنه يَصُبُّ ـ بالنهاية ـ في تحقيق استراتيجية إلحاق الشرق بالغرب ، وهيمنة الحضارة الغربية ـ المسيحية بمعنى من المعاني ـ على حضارة الإسلام . ومن هنا كان دَعْمُ حكومات فرنسا العلمانية لمدارس الإرساليات التنصيرية في المشرق العربيّ ؛ لأنها ـ وَفْقَ عبارة قناصل الحكومة الفرنسية ـ : « **تَسْتَهْدِفُ جَعْلَ سوريا ـ أي الشام الكبير ـ حليفًا أكثر أهمية من مُسْتَعمرة ! ـ وتأمين هيمنة فرنسا على منطقة خِصْبة ومُنْتِجة .. ! وتحويل الموارنة إلى جيش مُتفانٍ لفرنسا في كل وقت ! وجَعْل البربرية العربية ـ كذا ـ تنحني لا إراديًا أمام الحضارة المسيحية لأوربا** » [1] !!

---

(١) من مراسلات القناصل ـ أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية ـ باريس ـ سنوات ١٨٤٠ ـ ١٨٤٢ـ١٨٤٨ـ١٨٩٧ـ١٨٩٨م . انظر : محمد عمارة . هل الإسلام هو الحل ؟ . القاهرة ، ١٩٩٥ . ص ٢٢ .

فالهدف الاستراتيجيّ الذي يجتمع عليه الغرب الاستعماريّ الكنسيّ منه والسياسيّ ـ هو إعادة اختطاف الشرق من الإسلام ، والتَّوَصُّل إلى ذلك بتشويه صورة الإسلام ، أو طَيّ صفحة وجود هذا الإسلام !

• **والغرب السياسيّ** ـ القائد لهذه المواجهة ، بعد إزاحة الكنيسة عن مركز القيادة ـ له خطاب سياسيّ وثقافيّ وحضاريّ ، يَسْعَى إلى تغريب الشرق واحتلال عَقْلِ النخب من أبنائه ، لتأبيد احتلال الأرض ونَهْب الثروات ، عندما يُصْبح الغرب ونموذجه الحضاريّ والقيميّ هو قِبْلَةَ عقولِ هذه النخب من المفكرين والمثقفين .

• ومع توجيه هذا الخطاب الغربيّ ـ الثقافيّ منه واللاهوتيّ في الأساس ـ إلى عقولِ المسلمين الشرقيين ، فلقد توجَّهُوا به كذلك إلى الرأي العام الغربيّ لإقناعه بضرورته ، ولكسب تأييده لمراميه ، ولإشراكه في الإنفاق عليه والنهوض بتبعاته والحرب في سبيله .

• وإذا كان طَمَعُ الغرب الاستعماريّ ـ السياسيّ والكنسيّ ـ قد شَمِلَ العالم كله ، وليس فقط عالم الإسلام ، فلقد تَمَيَّزَ الخطاب الغربيّ للعالم الإسلاميّ عن خطابه للحضارات غير الإسلامية ، بسبب تَمَيُّزِ الإسلام ودَورِه في هذه المواجهة التاريخية بين الغرب والإسلام . فالإسلام ليس مجرد حضارة مُتميِّزة عن الحضارة الغربية ـ كما هو الحال مع الحضارات الأخرى : الصينية والهندية واليابانية ـ وإنما هو ـ مع هذا التميُّز ـ حضارة عالمية وليست محلِّية كتلك الحضارات ، ومن

ثَمَّ فهو المنافس الأول والأخطر للحضارة الغربية على النطاق العالميّ ، بل وفي عُقْرِ دار الحضارة الغربية ذاتها ! **ومن هنا كان إحياءُ الغرب وإنعاشه لذاكرة شعوبه بذكريات :**

ـ **الفتوحات الإسلامية الأولى** التي حَرَّرَت الشرق من هيمنة الغرب ـ في القرن السابع الميلاديّ ـ بعد عشرة قرون من القَهْر الحضاريّ ـ الإغريقيّ والرومانيّ والبيزنطيّ ـ للشرق .

ـ **وذكريات الوجود الإسلامي في الأندلس** ـ والذي استمرَّ ثمانية قرون [٩٢ ـ ٨٩٧ هـ / ٧١١ ـ ١٤٩٢ م] ـ وهو الوجود الذي كاد أن يُدْخِلَ كلَّ جنوب أوربا ووسطها في دائرة الإسلام ، لولا الهزيمة الإسلامية في معركة « بلاطِ الشهداء » [١١٤ هـ / ٧٣٢م] .

ـ **وذكريات الهزيمة الصليبية أمام الفروسية الإسلامية** ، وفَشَل الحملات الصليبية في إعادة اختطاف الشرق والقدس من الإسلام ، رغم استمرار هذه الحملات قرنين من الزمان [٤٨٩ ـ ٦٩٠ هـ / ١٠٩٦ ـ ١٢٩١ م] .

ـ **وذكريات المطاردة العثمانية للتحدِّي الأوربيّ على أرضه** ، وفيها تمَّ فَتْحُ القسطنطينية [٨٥٧ هـ / ١٤٥٣ م] ، ثم أَوْغَلَتْ هذه المطاردة على أرض البلقان حتى وصلت إلى أسوار « فينا » في [٩٣٥ هـ / ١٥٢٩ م] وفي [١٠٩٣ هـ / ١٦٨٣ م] .

ـ **وذكريات السيطرة الإسلامية على البحار الكبرى للكرة الأرضية** ـ الأبيض والأحمر والعرب والأسود ـ لأكثر من عشرة قرون ،

كان المسلمون فيها هم « العالم الأول » على ظَهْرِ هذا الكوكب .

كان المشروع الغربيّ ـ السياسيّ منه والكنسيّ ـ حريصًا دائمًا وأبدًا ، على إنعاش ذاكرة الشعوب الغربية بذكريات « خطر العالمية الإسلامية » على استراتيجيته ، وذلك لتأجج حماس تلك الشعوب في معركة الغرب لاستعادة الشرق مرة أخرى من الإسلام .

وفي كل مفردات هذا الخطاب الغربيّ ـ اللاهوتيّ منه والسياسيّ والثقافيّ والتعليميّ والإعلاميّ ـ كان الغرب حريصًا على توجيه أمضى أسْلِحته وأخطرها إلى الإسلام ـ الدين والثقافة والحضارة ـ باعتباره النموذج الذي حَرَّرَ الشرق من الرومان ومن الصليبيين ، والطاقة المقاومة لكلِّ محاولات هيمنة الغرب على الشرق من جديد .

ولقد أثمرت تراكمات مفردات هذا الخطاب الغربيّ ، الخاص بالشرق الإسلاميّ ، أثمرت مخزونًا من « **ثقافة الكراهية السوداء** » التي شاعت وترسَّبت ، بل وتكلّست ، في كثير من ميادين الثقافة واللاهوت والتعليم والإعلام بأوربا وأمريكا ، وهو المخزون الداعم للمشاريع الغربية لاستعمار الشرق ، والذي تَطْفَحُ به منابرُ الثقافةِ والإعلام والتنصير الغربية إبان الأزمات الحادَّة في علاقة الغرب بالإسلام ، على النحو الذي رأيناه ونراه بعد « قارعة ١١ سبتمبر سنة ٢٠٠١م » في الولايات المتحدة الأمريكية .

وفي هذا الميدان يستطيع العقلُ المسلم أن يتابعَ ويعي دلالات المواقف والأفكار ، التي غَدَت مكونات أساسية في ثقافة الخطاب

الغربيّ حولَ الإسلام والحضارة الإسلامية ، وهي مواقف وأفكار رَصَدَها وانتقدها علماء غربيون مُنصفُون ، وذلك من مثل :

* تصوير نبيّ الإسلام ﷺ ، باعتباره المنشق الكاثوليكيّ الأكبر ، الذي اختطف الشرق من الغرب الرومانيّ ، ومن الكاثوليكية !! وكما يقولُ المفكر الألمانيّ « **هوبرت هيركومر** » - في دراسته عن [صورة الإسلام في الأدب الوسيط] - : « **فإن الأوربيين ادعوا أن رسول الإسلام كان في الأصل كاردينالاً كاثوليكيًا تجاهلَتْه الكنيسةُ في انتخابات البابا ، فقام بتأسيس طائفة مُلْحدة في الشرق انتقامًا من الكنيسة . واعتبرت أوربا المسيحية - في القرون الوسطى - محمدًا المرتد الأكبر عن المسيحية ، الذي يَتَحَمَّلُ وِزْرَ انقسام نِصْفَ البشرية عن الديانة المسيحية** » [(١)] !!

* وتصوير الكاثوليكية الأدبية - بلسان فيلسوفها الأكبر « **توما الأكويني** » [١٢٢٥ - ١٢٧٤ م] - رسول الإسلام ﷺ ، بأنه « **الذي أغوى الشعوب من خلال وعوده الشهوانية ، وقام بتحريف جميع الأدلة الواردة في التوراة والأناجيل من خلال الأساطير والخرافات التي كان يتلوها على أصحابه . ولم يُؤْمِنْ برسالة محمد إلا المتوحِّشُون من البشر الذين كانوا يعيشون في البادية .. »!!** [(٢)] .

* وتصوير البروتستانتية الأوربية - بلسان رائدها الأول « مارتن لوثر »

---

(١) صورة الإسلام في التراث الغربي / ترجمة ثابت عيد . - القاهرة ، ١٩٩٩ ص ٢٣ ، ٢٤ .

(٢) المصدر السابق . ص ٢٣ ، ٣٣ .

[١٤٨٣ - ١٥٤٦ م] للقرآن الكريم « بأنه كتاب بغيض وفظيع وملعون ، ومليء بالأكاذيب والخرافات والفظائع » . وحديثه عن أن « إزعاج محمد ، والإضرار بالمسلمين ، يجب أن تكون هي المقاصد من وراء ترجمة القرآن ، وتَعَرُّف المسيحيين عليه ! » ، وأنَّ « على القساوسة أن يخطبوا أمام الشعب عن فظائع محمد ، حتى يزداد المسيحيون عداوة له ، وأيضًا ليقوى إيمانهم بالمسيحية ، ولتضاعف جسارتهم وبسالتهم في الحرب ضد الأتراك المسلمين ، وليضحوا بأموالهم وأنفسهم » في هذه الحروب !! [١] .

* وتصوير الغرب للمسلمين - في الثقافة الشعبية الأوربية ، ومن خلال الملاحم الشعبية ، مثل « ملحمة رولاند » سنة ١١٠٠م - بأنهم « الجنس الحيواني الحقير ، والكلاب والخنازير » !! ، وأنهم « يَعبدُون أصنام الثالوث : « أبوللين Apollin » و « تيرفاجانت Tervagant » و « حوميت (محمد) « Mahamet » !! [٢] .

وهي الأوصاف المزيفة والكاذبة ، التي لا تزال تَجترُّها حتى الآن « أفلام هوليود » ، و الأعمال « الأدبية » التي يفوز أصحابها بجوائز « نوبل » في هذه الأعوام !!

* ووَضَعَ « دانتي » [١٢٩٥ - ١٣٢١م] - صاحب « الكوميديا الإلهية » - رسول الإسلام ﷺ ، وعلي بن أبي طالب - كرّم الله وجهه - « في الحفرة التاسعة في ثامن حلقة من حلقات « جهنم » . وقد قطعت أجسامهم وشُوِّهَت أجسادهم في دار السعير ؛ لأنهم كانوا في الحياة

(١) المصدر السابق . ص ٢١ .

(٢) المصدر السابق . ص ١٨ ، ٢٥ .

الدنيا ـ بكذبه وافترائه ـ أهل شجار وشقاق » !! [١] .

• وحديث « جوته » [١٧٤٩ - ١٨٣٢م] عن القرآن الكريم ، باعتباره « الكتاب الذي يُكَرِّرُ نفسَه تكرارات لا تنتهي فيثير اشْمِئْزَازَنَا دائمًا ، كلما شرعْنَا في قراءته » !! .

• وحديث المستشرق الألماني « تيودور نولدكه » [١٨٣٦ - ١٩٣٠م] في كتابه [من تاريخ القرآن] ـ عن « لغة القرآن المتراخية والركيكة .. وتكراراته التي لا تنتهي ، والتي لا يستحي الرسول من استخدام الكلمات نفسها فيها . والبراهين التي تعوزها الدِّقَّة والوضوح ، والتي لا تُقنِعُ إلا المؤمنين من البداية بالعاقبة النهائية . والقصص التي لا تُقَدِّم إلا قليلًا من التنوع والتي كثيرًا ما تجعل آيات الوحي أقرب إلى الملل والسآمة ، فأسلوب القرآن فيه عيوبٌ كثيرة ، عيوب غير موجودة في القصائد العربية القديمة ولا في أخبار العرب ، وأفكاره ضَحْلَة ، وساذجة ، وبدائية » !!

• أما « توماس كارليل » [١٧٩٥ - ١٨٨١م] ـ الذي يحدِّث عن رسول الإسلام ﷺ ، حديثًا إيجابيًا ، حتى جَعَلَه ـ كزعيم مُصلِح ، وليس كنبي ورسول ـ أو العظماء المائة ـ فإنه هو القائل : « محمد شيء ، والقرآن شيء آخر مختلف تمامًا ، ولا يوجد شيء غير الشعور بالواجب يمكن أن يَحْمِلَ أي أوربيّ على قراءة القرآن ، إنه خليطٌ طويلٌ ومُمِلٌّ ومشوش .. جاف .. وغليظ .. باختصار ، هو غباءٌ لا يُحْتَمل » !! [٢] .

---

(١) المصدر السابق . ص ٢٤ .

(٢) ترجم هذه النصوص عن الألمانية : ثابت عيد ، ضمن ملف ـ تحت الطبع ـ عن « تقييمات غربية لأسلوب القرآن » .

هذه هي صورة الإسلام وقرآنه ورسوله ، وصورة المسلمين وحضارتهم ، التي شاعت في الثقافة الغربية ، وفي الخطاب الغربيّ عن الشرق الإسلاميّ ، منذ ظهور الإسلام حتى العصر الحديث ، والتي كَوَّنَت الأُصُول والجذور لثقافة الكراهية السوداء ، التي تستكن حينًا ، وتطفو أحيانًا ، إبان الأزمات بين الغرب والإسلام .

حدث هذا ويحدث ، بينما يؤمن المسلمون ويقدسون كل الكتب والشرائع والنبوات والرسالات ، لا يفرقون بين أحد من رسله ، ويتلون آيات القرآن التي تقول عن التوراة والإنجيل إن فيها هدى ونور .

* * *

ولقد سَعَت الغزوة الاستعمارية الأُوربية الحديثة ـ كي تُؤَبِّد احتلالها لعالم الإسلام ، ونَهْبها لثرواته ـ إلى تجريد الإسلام من شموله للدنيا مع الآخرة ، ومن مرجعيته للدولة والسياسة والاجتماع مع منظومة القيم والأخلاق الحاكمة لسلوك الأفراد . سعت إلى فكّ الارتباط بين شريعته الإلهية وبين حركة الواقع في المجتمعات الإسلامية التي استعمرتها هذه الغزوة ، وذلك لتُلْحِقَ هذا الواقع بالقانون الوضعيّ الغربيّ العلمانيّ ، حتى لا يبقى للإسلام إلا ملكوت السماء والغيب والدار الآخرة ـ كما هو حال النصرانية المهزومة أمام العلمانية الغربية ـ وسَعَت هذه الغزوة الاستعمارية كذلك إلى فكّ الارتباط بين الإسلام وبين العربية ـ لغة القرآن الكريم ـ وذلك لتغريب اللسان ، مع تغريب الفقه والقانون ، وكان خطاب الاستعمار الفرنسيّ في هذا الميدان نموذجيًّا ، فلقد أَعْلَنَ فلاسفته ومُنَظِّرُوه :

« أن الأسلحة الفرنسية هي التي فتحت البلاد العربية ، وهذا يُخَوِّلنا اختيار التشريع الذي يَجب تطبيقه في هذه البلاد ! ويجب فَصْلُ الدين الإسلاميّ عن القانون المدنيّ ، وحَصْر الإسلام في الاعتقاد وحده ، والحيلولة دون اندماج العادات والأعراف في الشرع الإسلاميّ ، ليتيسر دمجها في القانون الفرنسيّ بدلاً من القانون الإسلاميّ .. » !

« كذلك ، يجب الفَصْلُ بين الإسلام والاستعراب ، فالعربية هي رائد الإسلام ؛ لأنها تُعَلِّمُ من القرآن ، وإذا سادت الفرنسية بدلاً من العربية وأصبحت لغة التفاهم ، فلن يهمنا كثيرًا أن تضمَّ الديانة الإسلامية الشعب كله ، أو أن آيات من القرآن يتلوها رجال بلغة لا يفهمونها ، كما يقيم الكاثوليك القداديس باللغات اللاتينية والإغريقية والعبرانية » !![1]

فالمطلوب - في خطاب الغزوة الاستعمارية الغربية الحديثة - هو تجريد الإسلام من خصوصياته ومقوِّمات تميُّزه عن النموذج الحضاريّ الغربيّ ، وذلك بتغريب الفقه والقانون بالعلمانية ، بعد تغريب الواقع ، لعزل الشريعة عن الحياة ، وتغريب اللسان في بلاد الإسلام ، لعزل القرآن عن الحياة ، وإلحاق المسلمين بالثقافة الغربية ومنظومة قِيَمِها .

والدارس لواقع بلاد المغرب العربيّ - تونس والجزائر والمغرب - حتى بعدما يَقْرُبُ من نِصْفِ قرن من الاستقلال السياسيّ - يُدرِكُ حَجْمَ الكارثة التي أحدثها « التغريب الفرنكفوني » في ميادين اللغة والثقافة والتعليم والإعلام ، بل والقِيَمَ أيضًا ، حتى هذه اللحظات .

---

(١) محمد السماك . الأقليات بين العروبة والإسلام . بيروت ، ١٩٩٠ . ص ص ٥٧ - ٥٩ .

وفي واقعنا المعاصر

ولم تكن مقاصد الخطاب الغربيّ ـ خطاب الهيمنة ـ الموجّه إلى العالم الإسلاميّ المُعَاصِر، بأفضل كثيرًا من خطاب الغزوة الاستعمارية في العصر الحديث، بل ربما كان الأمر أسوأ في كثير من مفردات هذا الخطاب.

فالخطاب الكنسيّ اللاهوتيّ، الذي طَمَحَ ـ بل وطَمَعَ ـ إلى تنصير كل المسلمين، قد تحدَّثَ عن الإسلام ـ في وثائق «مؤتمر كولورادو سنة ١٩٧٨م» فقال: «إنَّ الإسلامَ هو الدين الوحيد الذي تُناقض مصادِرُه الأصليةُ أُسُسَ النصرانية، والنظامُ الإسلاميُّ هو أكثرُ النُّظُم الدينية المتناسقة اجتماعيًا وسياسيًا، ونحن بحاجة إلى مئات المراكز لفهم الإسلام، ولاختراقه في صِدْق ودَهاءٍ! ولذلك، لا يوجد لدينا أمر أكثر أهمية وأولوية من موضوع تنصير المسلمين، فعلى مديري إرساليات أمريكا الشمالية والقادة المنصرين الآخرين أن يَكْتَشِفُوا ويُوطدوا أساليب جديدة للتعاون والمشاركة مع كنائس العالم الثالث وعملها المنظم للوصول إلى المسلمين. لقد وطدنا العزم على العمل بالاعتماد المتبادل مع كل النصارى والكنائس الموجودة في العالم الإسلامي. إن نصارى البروتستانت ـ في الشرق الأوسط وإفريقيا وآسيا ـ منهمكون بصورة عميقة في عملية تنصير المسلمين، ويجب أن تخرج الكنائس القومية من عُزلتها، وتقتحم بعزم جديد ثقافات ومجتمعات المسلمين الذين تَسْعَى إلى تنصيرهم، وعلى المواطنين النصارى في البلدان الإسلامية وإرساليات التنصير الأجنبية العمل معًا، بروح تامَّة، من أجل الاعتماد المتبادل والتعاون المشترك لتنصير المسلمين، إذ يجب أن يتم كسبُ المسلمين عن طريق مُنَصِّرين مقبولين من داخل مجتمعاتهم، ويُفَضَّل

النصارى العرب في عملية التنصير . إن تنصير هذه البلاد سوفَ يتمُّ من خلال النصارى المنتمين إلى الكنيسة المحلية ، ويتمُّ ذلك بعد تكوين جالية محلِّية نصرانية قويّة » (١) .

وبعد هذا التخطيط لاختراق الإسلام في « صِدْق .. ودَهَاء ! » تحدّث قساوسة بروتوكولات التنصير عن ضرورة صناعة الكوارث في بلاد الإسلام ، لإحداث الخَلَلَ في توازن ضحايا هذه الكوارث ، باعتبار ذلك هو الشرط الضروريّ لِتَحوُّل هؤلاء الضحايا من الإسلام إلى النصرانية ! معتبرين ذلك « نعمة » كبرى و « معجزة » تُهَيئ لهم تنصيرَ المسلمين !! ، فقالوا : « لكي يكون هناك تَحَوُّل إلى النصرانية ، فلا بدَّ من وجود أزمات ومشاكل وعوامل تدفع الناس ـ أفرادًا وجماعات ـ خارج حالة التوازن التي اعتادوها ! وقد تأتي هذه الأمور على شَكْل عوامل طبيعية ، كالفقر والمرض والكوارث والحروب ، وقد تكون معنويَّة ، كالتفرقة العنصرية أو الوضع الاجتماعيّ المتدني . وفي غياب مثل هذه الأوضاع المُهَيِّئة فلن تكون هناك تحوُّلات كبيرة إلى النصرانية ! ولذلك ، فإن تقديم العون لذوي الحاجة قد أصبح أمرًا مهمًّا في عملية التنصير ! وإن إحدى معجزات عصرنا أنَّ احتياجات كثير من المجتمعات الإسلامية قد بَدَّلَتْ موقف حكوماتها التي كانت تناهض العمل التنصيريّ ، فأصبحت أكثر تقبلًا للنصارى !! » (٢) .

---

(١) [التنصير : خطة لغزو العالم الإسلاميّ] ـ الترجمة العربية لوثائق مؤتمر كولورادو . ص ٤٥٢ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٧٨٩ ، ٧٩٠ ، ٥٣ ، ٥٦ ، ٦٢٧ ، ٦٣٠ ، ٣٨٣ ، ٨٤٥ .. مالطا : مركز دراسات العالم الإسلاميّ ، ١٩٩١م .

(٢) المصدر السابق . ص ٢٤٢ ، ٨٢٦ ، ٨٢٧ ، ٤٦٩ ، ٣٦٤ ، ١٤٧ .

ولقد كشف هذا الخطاب التنصيريّ عن المقاصد الحقيقية من وراء ما يُسَمُّونَه « الحوار بين الأديان » ، فإذا بهذه المقاصد هي التمهيد للتحوُّل القسريّ - نعم القسريّ - إلى النصرانية ، وبنصِّ عباراتهم يقولون : « **إنَّ بيانات مجلس الكنائس العالميّ ، التي تشدِّد على « حرية الإقناع والاقتناع » لا تلزم المجلس !! ، فالحوار - عند مجلس الكنائس العالميّ - ليس بديلًا عن تحويل غير النصارى إلى النصرانية ، وهذه البيانات - عن « حرية الإقناع والاقتناع » - لا تعني تخلي المجلس عن مواقفه المناصرة « للجهود القسريَّة والواعية والمتعمدة والتكتيكية لجذب الناس من مجتمع ديني ما إلى آخر . إنه بينما يوافق المُنَصِّرُون على أن التحوُّلَ لدين آخر لا يجب ولا يمكن أن يتم بالقوة ، فإنهم ما زالوا يَشْعرون أيضًا بأننا ينبغي « أن نجبرهم على الدخول « في النصرانية .. »** [(١)] !!

وإذا كان هذا هو الخطاب الكنسيّ البروتستانتيّ إزاء الإسلام والمسلمين ، فإن خطاب الكاثوليكية الغربية يَقْطُر ، هو الآخر ، بالعداء للإسلام . فالمونسنيور « **جوزيبي برناردیني** » يُصَرِّحُ - بحضرة بابا الفاتيكان يوحنا بولس الثاني - في سنة ١٩٩٩م - فيقول : « **إن العالم الإسلاميّ سبق أن بدأ يبسط سيطرته بفضل دولارات النفط ، وهو يبني المساجد والمراكز الثقافية للمسلمين المهاجرين في الدول المسيحية ، بما في ذلك « روما » عاصمة المسيحية ، فكيف يمكننا ألا نرى في ذلك برنامجًا واضحًا للتوسُّع ، وفتحًا جديدًا ؟ ! »** [(٢)]

---

(١) للصدر السابق . ص ٧٧٠ .

(٢) صحيفة « الشرق الأوسط » في ١٣ - ١٠ - ١٩٩٩م .

وفي نفس التاريخ ، يتحدَّث الكاردينال « بول بوبار » - مساعد بابا الفاتيكان ، ومسئول المجلس الفاتيكانيّ للثقافة - إلى صحيفة « الفيجارو » الفرنسية ، فيقول : « إن الإسلام يُشَكِّل تحديًا بالنسبة لأوربا وللغرب عمومًا . وإن المرء لا يحتاج إلى أن يكون خبيرًا ضليعًا لكي يلاحظ تفاوتًا متزايدًا بين معدلات النمو السكانيّ في أنحاء مُعَيَّنة من العالم ، ففي البلدان ذات الثقافة المسيحية يتراجع النمو السكاني بشكل تدريجيّ ، بينما يحدُث العكسُ في البلدان الإسلامية النامية . وفي مَهْدِ المسيح ، يتساءل المسيحيون بقلق عما سيحمله لهم الغد ، وعما إذا لم يكن موتهم مبرمجًا بشكل ما ؟ ! إن التحدِّي الذي يُشَكله الإسلام يَكمُنُ في أنه دين وثقافة ومجتمع وأسلوب حياة وتفكير وتصرُّف ، في حين أن المسيحيين في أوربا يميلون إلى تَهْمِيش الكنيسة أمام المجتمع ، ويتامَون الصيام الذي يَفْرِضه عليهم دِينُهم ، وفي الوقت نفسه يَنبهرُون بصيام المسلمين في شهر رمضان » ! [١] .

ويمضي هذا الخطاب الكنسيّ الكاثوليكي ليرفض التعايش بين الإسلام والمسيحية في أوربا ، فيقول الكاردينال « جاكوموبيفي » - أسقف مدينة « بولونيا » بإيطاليا - في رسالته يوم ١٣ - ٩ - ٢٠٠٠م - داعيًا إلى استئصال المسلمين من أوربا ! : « .. فإما أن تتحول أوربا إلى مسيحية فورًا ، وإلا ستكون إسلامية مُؤكَّدًا » [٢] ! .

---

(١) صحيفة « الشرق الأوسط » في ١ - ١٠ - ١٩٩٩م .

(٢) صحيفة العالم الإسلامي في ٦ - ١٠ - ٢٠٠٠م .

هذا هو الخطاب الكنسيّ الغربيّ إزاء الإسلام ، وتلك هي صورة الإسلام في هذا الخطاب ـ البروتستانتيّ منه والكاثوليكيّ ـ في الواقع المعاصر الذي نعيش فيه ، والسابق على « قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١م » التي ألمت بأمريكا .

* * *

أمّا خطاب المشروع السياسيّ والحضاريّ الغربيّ المعاصر إزاء الإسلام ، فلقد بدأته أمريكا عَقِبَ الحرب العالمية الثانية ـ عندما وَرِثَت الإمبراطوريات الاستعمارية القديمة : الإنجليزية والفرنسية ـ بمحاولة « استغلال » الإسلام في حربها الباردة ضد الشيوعية ، وبعبارات الشهيد سيد قطب [١٣٢٤ ـ ١٣٨٦ هـ / ١٩٠٦ ـ ١٩٦٦ م] : « **إن الإسلام الذي يُريده الأمريكان وحلفاؤهم في الشرق ، ليس هو الإسلام الذي يُقَاوم الاستعمار ، وليس هو الإسلام الذي يُقَاوم الطغيان ، ولكنه فقط الإسلام الذي يُقَاوِمُ الشيوعية . إنهم لا يريدون للإسلام أن يَحْكُمَ ، ولا يُطيقون من الإسلام أن يَحْكُم ؛ لأن الإسلام حين يَحْكُمُ سينشّئ الشعوب نشأة أخرى ، وسَيُعَلِّم الشعوب أن إعداد القوة فريضة ، وأن طرد المستعمر فريضة ، وأن الشيوعية كالاستعمار وباء ، فكلاهما عدوٌ ، وكلاهما اعتداء .. الأمريكان وحلفاؤهم إذن يريدون للشرق « إسلامًا أمريكانيًا » ، يجوز أن يُستَفتى في مَنْع الحمل ، ويجوز أن يُستَفتَى في دخول المرأة البرلمان ، ويجوز أن يُستَفتَى في نواقض الوضوء ، ولكنه لا يُستَفتَى أبدًا في أوضاعنا الاجتماعية أو الاقتصادية أو نظامنا الماليّ ، ولا يُستفتى أبدًا في أوضاعنا السياسيّة والقوميّة ، وفيما يربطنا بالاستعمار من**

صلات . فالحكم بالإسلام ، والتشريع بالإسلام ، والانتصار للإسلام لا يجوز أن يمسها قَلَمٌ ، ولا حديث ، ولا استفتاء .. » [١] في الإسلام الأمريكانيّ !

هذا هو نوع « الإسلام الأمريكانيّ » الذي أرادت أمريكا « استغلاله » في حَرْبِها الباردة ضد الشيوعية ، كما استغلّت النصرانية أيضًا وأنشأت لذلك « مجلس الكنائس العالميّ » في ذات التاريخ !

فلما تعاظم مدُّ اليقظة الإسلامية - في سبعينيات القرن العشرين - عَقِبَ سقوط نماذج التحديث على النمط الغربيّ ، اتخذت أمريكا - ومن وارثِها الغرب - من الإسلام المجاهد ، إسلام اليقظة والصحوة عدوًّا ، حتى قَبْل قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١م ، وحتى عندما كانت كل الحركات الإسلامية - التي يُسَمُّونها « أُصُولية ومُتَطرفة » - تقف مع أمريكا في خندق واحد إبان الجهاد الأفغانيّ ضد الاتحاد السوفيتيّ والشيوعية ، في ثمانينيات القرن العشرين !

وفي ذلك التاريخ ، كَتَبَ الرئيس الأمريكيّ « ريتشارد نيكسون » - وهو مُفكّر استراتيجيّ - عن هذه اليقظة الإسلامية التي يقودها من أسماهم « الأُصُوليون الإسلاميُّون » ، الذين هم - كما يقول - : « مُصَمِّمُون على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة ، عن طريق بعث

---

(١) من كتاب [أمريكا من الداخل] - والنقل عن : د. جابر قميحة : « سيد قطب والإسلام الأمريكاني » - صحيفة « آفاق عربية » - القاهرة - في ٢٧ - ١٢ - ٢٠٠١م - والدكتور جابر ينقل عن مجلة « الرسالة » سنة ١٩٥١م .

الماضي ، ويَهْدِفُون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، وينادون بأن الإسلام دين ودولة . وعلى الرغم من أنهم ينظرون إلى الماضي فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل ، فهم ليسوا محافظين ، ولكنهم ثوار » !

ودعا « نيكسون » إلى اتحاد الغرب ـ الأمريكيّ والأوربيّ والروسيّ ـ لمواجهة هذا البعث الإسلاميّ وإلى : « تحديد الخيار الذي تختاره الشعوب المسلمة » !! ليكون « نموذج تركيا العلمانية المنحازة نحو الغرب ، والساعية إلى رَبْط المسلمين بالغرب سياسيًا واقتصاديًا .. وذلك حفاظًا على مصالح الغرب في الشرق ؛ لأن أكثر ما يهمنا في الشرق الأوسط هو النفط وإسرائيل . وإن التزامنا نحو إسرائيل عميق جدًا ، فنحن لسنا مجرد حلفاء ، ولكننا مرتبطون ببعضنا بأكثر مما يَعْنيه الورق ! نحن مرتبطون معهم ارتباطًا أخلاقيًا ، ولن يستطيع أيُّ رئيس أمريكيّ أو كونجرس أن يسمح بتدمير إسرائيل .. » .

ولقد أفصح « نيكسون » عن الموقف الأمريكيّ ـ والغربيّ ـ الذي اتخذ الإسلام والمسلمين عدوًا ، عندما قال : « إنَّ الكثيرين من الأمريكيين قد أصبحوا ينظرون إلى كلِّ المسلمين كأعداء ، ويَتَصوَّر كثيرٌ من الأمريكيين أن المسلمين هم شعوبٌ غير مُتَحضِّرة ، ودَيِّئُون ، وغير منطقيين . وليس هناك صورة أسوأ من هذه الصورة ـ حتى بالنسبة للصين الشيوعية ـ في ذِهْن وضمير المواطن الأمريكيّ عن العالم الإسلاميّ . ويُحَذِّر بعض المراقبين من أن الإسلام والغرب متضادان ، وأن الإسلام سوف يُصْبحُ قوةً جيوليتيكية متطرفة ، وأنه مع التزايد السكانيّ والإمكانات المادية المتاحة ، سوف يؤلِّفُ المسلمون مخاطر كبيرة . وأنهم يوحِّدون صُفُوفهم للقيام بثورةٍ ضد الغرب ،

وسوف يضطر الغرب إلى أن يتّحد مع موسكو ليواجه الخطر العدوانيّ للعالم الإسلاميّ » [١] !!

تلك هي صورة الإسلام في الخطاب الاستراتيجيّ الأمريكيّ ـ والغربيّ ـ في ثمانينيات القرن العشرين ، إبان « شهر العسل » بين أمريكا والغرب وبين كل الحركات الإسلامية ـ والدول الإسلامية ـ أثناء الجهاد المشترك ضد الشيوعية في أفغانستان ، وقبْل « قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١م » بنحو خمسة عشر عامًا !

فلما سقطت الشيوعية سنة ١٩٩١م ، وأعلن الغرب أن الإسلام هو العدوُّ الذي حلَّ محلَّ إمبراطوريتها الشريرة ، عَلَّلَتْ مجلة « شؤون دولية » ـ الصادرة في « كمبردج » بانجلترا ـ في يناير سنة ١٩٩١م سَبَبَ سرعة هذا الإعلان الغربيّ ـ أن الإسلام هو العدوُّ ـ فقالت : **« لقد شَعَرَ الكثيرون ـ في الغرب ـ بالحاجة إلى اكتشاف تهديد يحلُّ محلَّ التهديد السوفيتيّ . وبالنسبة إلى هذا الغرض فإن الإسلام جاهز في المتناول ، فالإسلام من بين الثقافات الموجودة في الجنوب هو الهدف المباشر للحملة الغربية الجديدة ، ليس لسبب سوى أنه الثقافة الوحيدة القادرة على توجيه تَحدٍّ فعليّ وحقيقيّ للثقافة الغربية ، ذلك أن النظرية التي يَعْتَنِقُها علماءُ الاجتماع ، والتي تقول : إن المجتمع الصناعيّ والعلم الحديث يُقَوِّضُ الإيمان الدينيّ ـ مقولة العلمنة ـ صالحة على العموم ، فالتأثير السيكولوجيّ للدين قد تناقص عمليًا في كل المجتمعات ،**

---

(١) نيكسون ، ريتشارد . الفرصة السانحة / ترجمة أحمد صدقي مراد . – القاهرة ، ١٩٩٢ . ص ٢٨ ، ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٣٥ ، ١٣٨ ، ١٣٩ .

وبدرجات متفاوتة وأشكال مختلفة ، لكن عالم الإسلام قد مَثَّلَ استثناء مُدْهِشًا وتامًّا جدًّا من هذا ، فلم تتم أي علمنة في عالم الإسلام . إن سيطرة الإسلام على المؤمنين به هي سيطرة قوية ، وهي بطريقة ما أقوى الآن مما كانت من ١٠٠ سنة مضت . إن الإسلام مُقاوِم للعلمنة نوعًا ما ، والأمر المدهش هو أن يظل صحيحًا في ظلّ مختلف النُّظُم السياسية . وإن وجود تقاليد محلية الإسلام قد مكّن العالم الإسلامي من أن يفلت من معضلة تقليد العلمانية الغربية ، وإن عملية الإصلاح الذاتيّ استجابة لدواعي الحداثة ، يُمْكِنُ أن تتمَّ باسم الإيمان المحلّي ، وذلك هو التفسير الأساسيّ لمقاومة الإسلام المرموقة للعلمنة ، وإن أوربيين كثيرين يتساءلون : عما إذا كان يُمْكِنُ جَعْل الإسلام يَقْبلُ بقواعدِ المجتمع العلمانيّ ، مثلما فَعَلَت المسيحية بعد صراعات كثيرة وطويلة ومُؤلِمة ؟ أم أن رُسُوخ الإسلام في المجال السياسيّ والاجتماعيّ يجعله يَرْفُضُ القبولَ بالمبدأ المسيحيّ / الغربيّ الذي يُمَيِّزُ بين ما لله وما لقيصر ، وبما لا يسمحُ لمُعتَنقيه أن يُصْبِحوا مواطنين خَاضِعين للقانون بصورة يُعَوَّل عليها في ديمقراطية علمانية » ؟

فتخيير الإسلام بين العلمنة ، أي التحوُّل إلى صورة شرقية للنصرانية الغربية ، يقف عند الشعائر والعبادات ، فيتنازل ـ بذلك ـ عن خصوصياته ومميزاته ، فاتحًا الطريق أمام تغريب العقل المسلم ، وهيمنة العولمة الغربية على دنيا المسلمين . إن تخيير الإسلام والمسلمين بين هذه التبعية الفكرية وبين أن يكونوا العدوَّ الذي تُوجَّه إليه آلة الحرب وحملات الإعلام التي كانت موجَّهة للشيوعية وأحزابها وحكوماتها ، هو أمر سابق على « قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١ » ، وسابق على الانشقاق الذي حَدَثَ بين الجماعات الإسلامية « الراديكالية » وبين أمريكا . فنحن بإزاء موقف

قديم وثابت وأصيل في المواجهة بين الغرب والإسلام ، وكما قال « جلوب باشا » : « **فإن تاريخ مشكلة الشرق الأوسط ـ أي مشكلة الغرب مع الشرق ـ إنما يعود إلى القرن السابع للميلاد** » ! أي إلى ظهور الإسلام ، وتحريره الشرق من هيمنة الغرب ، وبقائه القوة الشرقية المجاهدة ضد محاولات اختطاف الغرب للشرق من جديد . وليست القضية هي قضية « قارعة سبتمبر » في القرن الواحد والعشرين .

بعد قارعة سبتمبر ٢٠٠١ م

في ضوء هذا الذي قدمناه عن تزييف « المشروع الغربيّ السياسيّ والكنسيّ » لصورة الإسلام ، وبدء هذا التزييف مع بدء ظهور الإسلام وتحريره للشرق من هيمنة الغرب الرومانيّ البيزنطيّ ، ومقاصد الغرب من وراء هذا التزييف :

أ ـ تغريب عقول مفكرينا ومثقفينا ، ليتبنّوا نموذجه الحضاريّ بدلًا من النموذج الإسلاميّ ، فتُصْبح المركزية الغربية هي قِبْلَتَنا ، طواعية وتطوّعًا !

ب ـ وتضليل شعوبه الغربية ، لتنخرط في المواجهة مع الإسلام ، دعمًا لمشروع الهيمنة .

ج ـ وإراحة ضميره ، عندما يصدق الصورة التي زَيَّفَها للإسلام ـ باعتباره نمطًا من الفكر البدائيّ والمُتَخَلِّف ، تؤمن به شعوب بدائية ومُتَخَلِّفة ، يحول بينها وبين « التقدم » ـ بمعناه الغربيّ ـ فيقتنع « الضمير » الغربيّ عندئذ ـ بمنطق الداروينية ـ أنه صاحب رسالة تنويرية وتَقَدُّمية وتحضيرية عندما يحارب خصوصياتنا الحضارية ، ويعادي مميزاتنا القيمية ، ويعمل على إبادة البِنَى الموروثة لثقافتنا الإسلامية ، فهو الأقوى ، وبمنطق الداروينية ، فهو الأصلح للبقاء في هذا الصراع الحتمي !!

وذلك وصولًا إلى تحقيق الهيمنة على عالم الإسلام ، ونَهْب ثرواته ، الذي هو المقصد الأعظم لمشروع الهيمنة الغربيّ في ضوء هذا الذي قدَّمناه حول هذا الموضوع ـ الذي هو موضوع الساعة كما هو موضوع التاريخ ـ نفهم كيف أن طوفان ثقافة الكراهية السوداء للإسلام وأمّته

وحضارته ، الذي تفجرت ينابيعه الأمريكية والغربية في وجوهنا ، عقب « قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١ م » ، لم يكن من « إنشاء » هذه القارعة ولا كانت أسبابه « جماعات العنف العشوائي » التي ترفع رايات الإسلام ، وإنما كان هذا الطوفان « تصعيدًا حادًّا » لموقف تاريخيّ قديم ، و « كشفًا » عن مخزون مكنون ، وَضَعَ الغافلين منا واللاهين عن الحقائق في موقف الذين تَحَدَّثَ عنهم القرآن الكريم عندما قال : ﴿ لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ ﴾ [ق : ٢٢] .

وإذا كان استعراض وقائع هذا الطوفان - بل والبركان - الذي تَفَجَّرَت حِمَمُه في وَجْه الإسلام وأمته وحضارته وعالمه : سلاحًا يقتل ، وحصارًا يخنق ، وحملات نفسية وفكرية وثقافية ودينية وإعلامية ، وتهديدًا ووعيدًا - إذا كان استعراض وقائع هذا الطوفان والبركان يحتاج إلى دراسة مُطَوَّلة ومُتَخَصِّصة [١] فإننا نختار نماذج شاهدة على أن هذه الحرب التي أعلنها الغرب على الإسلام - تحت اسم « الأُصُولية الإسلامية » أو « الراديكالية الإسلامية » أو « الإرهاب الإسلاميّ » وفي بعض الأحيان على الإسلام وقرآنه ورسوله ﷺ مباشرة وفي صراحة ووقاحة - إنما هي حَرْب المشروع الغربيّ - السياسيّ والحضاريّ والكنسيّ - وليست مجرد تَعَصُّب كاتب هنا أو حماقة أديب هناك . نختار نماذج شاهدة من كلمات القيادات المسئولة ، المعبِّرة عن أركان النظام الأمريكيّ والغربيّ ،

---

(١) انظر : دراستنا عن « الهجمة الأمريكية على الإسلام » بكتابين : [في فقه المواجهة بين الغرب والإسلام] طبعة القاهرة ، ٢٠٠٣م .

ومشروع الهيمنة الذي يعلنون عنه الآن عندما يكتبون ويقولون : إن القرن الواحد والعشرين إنما هو قرن الإمبريالية الأمريكية والإمبراطورية الأمريكية دونما منافس أو شريك !

إنها حَرْبٌ مُعْلَنة - وليس مؤامرة سِرِّيَّة تُدَبَّرُ في الخفاء - على « الإسلام المقاوم » لمشروع الهيمنة الأمريكيّ / الغربيّ ، وليست حربًا على الإسلام الذي يقف عند الشعائر والعبادات ، وتقصير الثياب ، وإطالة اللحىٰ ، وفِقْه الغناء والموسيقى والدخان والتصوير ! ولا الإسلام الذي يغرق في بحار الدروشات والشعوذات والخرافات !

وهذا الإسلام المقاوم للهيمنة هو الذي يُسَمُّونَه « الأُصُولية الثورية » ، وتعريفهم لها - حتى لا يخدعنا مخادع - قد حَدَّدَه الرئيس الأمريكي الأسبق - ورجل الاستراتيجية - « ريتشارد نيكسون » عندما وَصَفَ هؤلاء الأُصُوليين الإسلاميين الثوار بأنهم : « **هم المصممون على استرجاع الحضارة الإسلامية السابقة عن طريق بَعْثِ الماضي ، والذين يهدفون إلى تطبيق الشريعة الإسلامية ، وينادون بأن الإسلام دين ودولة . وعلى الرغم من أنهم ينظرون إلى الماضي ، فإنهم يتخذون منه هداية للمستقبل ، فهم ليسوا محافظين ، ولكنهم ثوار** »[1] !

وإذا كانت هذه هي « الأُصُولية الإسلامية الثورية » ، التي أعلنت أمريكا - والغرب - الحرب عليها ، عَقِب « قارعة سبتمبر » ، فإنها هي بعينها الإسلام الشامل والمقاوم لمشروع الهيمنة الأمريكي / الغربيّ ، وهي البعث

---

(١) [الفرصة السانحة] ص ١٤٠ .

الإسلاميّ ، على وَجْه الدقة والتحديد ، وليست « جماعات العنف العشوائي » بحال من الأحوال .

وإذا نحن تَجَاوَزْنَا ـ مُجَاراة للبعض ـ عن دلالات وَصْفِ الرئيس الأمريكيّ « **بوش ـ الصغير** » هذه الحرب بأنها « حملة صليبية » ، وقَبِلْنا ـ تجاوزًا ـ ما يقوله هذا البعض من أن هذه العبارة هي « زلة لسان » ! فإننا نقدِّم هنا نماذج « للتصريحات ـ الحيثيات » الصادرة عن أعمدة السياسة والإدارة والفكر الاستراتيجيّ للمشروع الأمريكيّ والغربيّ ، والتي تشهد على أن هذه الحرب إنما هي مُعْلَنة ضد الإسلام ، أو داخل الإسلام .. والإسلام المقاوم للهيمنة على وَجْه الخصوص والتحديد :

* فوزير العدل ـ نعم العدل ! ـ الأمريكيّ « **جون أشكروفت** » ، لم يكتفِ بالحديث عن حَرْبِ الحضارة ضد البربرية ، والخير ضد الشر ، والمدنية ضد التخلُّف ـ كما صَنَعَ آخرون ، وإنما ذَهَبَ ليتفوَّق على غلاة القساوسة المُنَصِّرين ، فَسَبَّ إله العالمين ، الذي يُؤْمِن به مليار ونصف المليار من المسلمين ، فقال : « **إن المسيحية دينٌ أرسل الرب فيه ابنه ليموت من أجل الناس ، أما الإسلام فهو دين يطلب الله فيه من الشخص إرسال ابنه ليموت من أجل هذا الإله** » !! [(١)] .

* والسيناتور الأمريكيّ « **جوزيف ليبرمان** » ـ الذي كان مرشحًا ديمقراطيًا لمنصب نائب الرئيس في الانتخابات الأمريكية سنة ٢٠٠٠م .

---

(١) صحيفة « الشرق الأوسط » في ٢١ ـ ٢ ـ ٢٠٠٢ م .

ومرشح الرئاسة القادمة ـ يُعلن : « أنه لا حلَّ مع الدول العربية والإسلامية إلا أن تَفْرِضَ عليها أمريكا القِيمَ والنُّظُم والسياسات التي نراها ضرورية ، فالشعارات التي أعلنتها أمريكا عند استقلالها لا تنتهي عند الحدود الأمريكية بل تتعداها إلى الدول الأخرى »[١] !!

• ووزيرة الخارجية الأمريكية السابقة « مادلين أولبرايت » تُعْلِن : « إننا ، معشر الأمريكيين ، أمة ترتفع قامتها فوق جميع الشعوب ، وتمتد رؤيتها أبعد من جميع الشعوب »[٢] ! فتتحدث إلى الشعوب الإسلامية بلغة النازية ، التي سَبَقَ وعانت منها .

• والزعيم « الدينيّ ـ السياسيّ » « بات روبرتسون » مُؤَسِّس جماعة التحالف السياسيّ المسيحيّ ـ التي تسيطر على الكونجرس الأمريكيّ والحزب الجمهوريّ والإدارة الأمريكية ـ وهو مُرَشح أسبق للرئاسة الأمريكية ، والأب الروحيّ للرئيس « بوش ـ الصغير » ، الذي وُلِدَ ـ بوش ـ على يديه ولادته المسيحية الجديدة ، بعد انحرافه الذي استمر حتى سن التاسعة والثلاثين ـ يُعْلِن « بات روبرتسون » : « أنَّ الدين الإسلاميّ دعا إلى العنف ، وأنه بالنظر إلى المعنى الحقيقي لآيات قرآنية ، فإن « أسامة بن لادن » أكثر وفاءً لدينه الإسلاميّ من آخرين . وأن أمريكا بحاجة إلى إنذار ضد خطر المسلمين الذين يكرهون أمريكا ويحاولون تدمير إسرائيل ، وأننا ـ في هذه الحرب ـ إنما نُعْلِي كلمة الله الذي يَقِفُ معنا ، مع

---

(١) صحيفة « الأهرام » في ١٦ ـ ١ ـ ٢٠٠٢م .

(٢) صحيفة « الأهرام » في ٣٠ ـ ١٠ ـ ٢٠٠١م

الحق في هذا الصراع الدينيّ الذي نَخُوضُه ، ويحيطنا بعنايته .. »[١] !!

• والمستشرق الأمريكيّ الصهيونيّ « برنارد لويس » - وهو من أعمدة المشيرين على صانع القرار الأمريكيّ - يقول في كتابه الذي أصدره بعد « قارعة سبتمبر » بعنوان « ما هو الخطأ في العلاقة بين الإسلام والغرب ؟ » :

« إن إرهاب اليوم هو جزء من كفاح طويل بين الإسلام والغرب ، فالنظام الأخلاقي الذي يَسْتَنِدُ إليه الإسلام مختلف عما هو في الحضارة اليهودية / المسيحية - الغربية - وآيات القرآن تصدق على ممارسة العنف ضد غير المسلمين ، وهذه الحرب هي حرب بين الأديان » !![٢] .

• و « توني بلير » رئيس وزراء انجلترا ، يُعْلن - في ١٧ سبتمبر سنة ٢٠٠١م - أي بعد ستة أيام من « قارعة سبتمبر » ، أن هذه الحرب التي أعلنها الغرب على الإسلام « هي حرب المدنية والحضارة - في الغرب - ضد البربرية - في الشرق » !

• أما « مارجريت تاتشر » رئيسة وزراء انجلترا الأسبق ، فإنها تكتب عن **« تحدي الإرهاب الإسلامي الفريد ، الذي لا يقف عند « أسامة بن لادن » ، بل ويَشْمَلُ حتى الذين أدانوا هجمات الحادي عشر من سبتمبر - على أمريكا - والذين انتقدوا بشدَّة أسامة بن لادن**

---

(١) صحيفة « الشرق الأوسط » في ٣ - ٢ - ٢٠٠٢م . و « الحياة » - لندن - في ٢٦ - ٢ - ٢٠٠٢ م . و « الأهرام » في ١١ - ١٢ - ٢٠٠٢م .

(٢) صحيفة « الأهرام » في ٢ - ٣ - ٢٠٠٢م ، ٣ - ٣ - ٢٠٠٢ - والأهرام ينقل عن مقال « زخاري كاربيل » في « النيوزويك » - الأمريكية - بتاريخ ١٤ - ١ - ٢٠٠٢م .

و « طالبان » ، لكنهم « يرفضون القيم الغربية ، وتتعارض مصالحهم مع مصالح الغرب » . فالذين يرفضون القيم الغربية ، وتتعارض مصالحهم مع الحكومة الغربية ، تصفهم « تانشر » بأنهم « أعداء أمريكا وأعداؤنا » ، وتشَبههم بالشيوعية ، وتدعو الغرب إلى معاملتهم كما عاملت الشيوعية »[١] .

• ورئيس وزراء إيطاليا « سيلفيو بيرلسكوني » يعلن - في ٢٦ سبتمبر سنة ٢٠٠١م - : « أن الحضارة الغربية أرقى من الحضارة الإسلامية ، ولا بدَّ من انتصار الحضارة الغربية على الإسلام الذي يجب أن يُهْزَم ؛ لأنه لا يعرف الحرية ولا التعددية ولا حقوق الإنسان ، وأن الغرب سيواصل تعميم حضارته وفَرْض نفسه على الشعوب ، وأنه قد نَجَحَ - حتى الآن - في تعميم حضارته وفرض نفسه مع العالم الشيوعيّ وقسم من العالم الإسلامي »[٢] !!

• وغير أعمدة النظم والسياسة والإدارة في أمريكا وانجلترا وإيطاليا ، نجد وزير الداخلية في ألمانيا « أوتو شيلي » ، يبلغ الحد الذي يَصِفُ فيه « عقيدة الإسلام بأنه هرطقة وضلال »[٣] !!

• أما وزير خارجية ألمانيا « يوشكا فيشر » ، فإنه يُعْلِن - في محاضرة « حول آفاق السياسة الدولية إثر اعتداءات ١١ سبتمبر » أمام طلبة جامعة « فراي » - ببرلين - يُعْلِن شكوكه في « قدرة الإسلام على التطور » ! ويتساءل : « هل يوجد طريق إسلاميّ إلى الحداثة » ؟ -

---

(١) صحيفة « الشرق الأوسط » في ١٤ - ٢ - ٢٠٠٢م .

(٢) صحيفة « الحياة » في ٣٠ - ٩ - ٢٠٠١م .

(٣) صحيفة « الأهرام » في ٢ - ٣ - ٢٠٠٢م .

بمعناها الغربيّ ! ـ ثم يَصِفُ الأُصُولية الإسلامية ـ الرافضة للحداثة والقيم الغربية بأنها « **التوتاليتارية الجديدة** » [١] ! أي الديكتاتورية والشمولية الجديدة !!

• أما أساطينُ الفكر الاستراتيجيّ الأمريكيّ المشيرون على صانع القرار ، والذين تُوضَع نظرياتهم في الممارسة والتطبيق ـ من مِثْلِ « **فرانسوا فوكوياما** » الذي أعلن أن « الليبرالية الرأسمالية المنتصرة على الشيوعية هي نهاية التاريخ التي يجب تعميمها وقبولها في كل الفضاءات العالمية » . ومن مِثْلِ « **صموئيل هنتنجتون** » ، الكاشف عن الموقف الغربيّ في نزعة صِدَام الحضارات ، والذي أشار على صانع القرار الأمريكيّ بتحييد الحضارات العالمية حتى يفرغ من مصادمة ومصارعة الإسلام ، فإن المشروع الغربيّ للهيمنة يضع نظريات هؤلاء المفكرين في الممارسة والتطبيق ، ونراها رأي العين ، وتلمسها حواسنا في طوفان التصريحات والقرارات التي توالت وانهالت عقب « قارعة سبتمبر » ، وفي المواجهة الحادة التي قام بها الغرب ضد الإسلام ، والحروب والمحاضرات والتهديد والوعيد ، الذي يُمَثِّلُ هذا « الكابوس » القائم في عالم الإسلام .

أما أساطين الفكر الاستراتيجيّ هؤلاء ، فلقد كانت لهم فضيلة « الصراحة العارية » في التعبير عن حقيقة هذه الحرب ومقاصدها .

فهي ليست حربًا على « جماعات العنف العشوائي » الإسلامية ، ولا على ما يُسَمَّى بـ « الإرهاب » ، وإنما هي « حرب داخل الإسلام » لتغيير

(١) صحيفة « الشرق الأوسط » في ٢٦ ـ ٤ ـ ٢٠٠٢م .

طبيعته وخصوصيته ، « وحتى يقبل الحداثة - بمعناها الغربيّ » أي القطيعة مع خصوصيته وماضيه ، « فيصبح علمانيًا ، يَقْبلُ المبدأ المسيحيّ : دع ما لقيصر لقيصر وما لله لله » ، فيقف عند ما لله في ملكوت السماء والدار الآخرة ، وخلاص الروح ، ويترك دنيا العالم الإسلامي وثرواته للهيمنة الأمريكية والغربية !

وبعبارات « فوكوياما » : « فإن الحداثة التي تُمَثِّلُها أمريكا وغيرها من الديمقراطيات المتطورة ، ستبقى القوة المسيطرة في السياسة الدولية ، والمؤسسات التي تُجَسِّدُ مبادئ الغرب الأساسية ستستمر في الانتشار عَبْرَ العالم ، وهذه القيم والمؤسسات تلقي قبولاً لدى الكثير من شعوب العالم غير الغربية ، إن لم نَقُلْ جميعها ، لكن السؤال الذي نحتاج إلى طرحه هو : هل هناك ثقافات أو مناطق في العالم ستقاوم ، أو تثبت أنها منيعة على عملية التحديث » - بهذا المعنى الأمريكي والغربيّ ؟

ثم يجيب « فوكوياما » عن هذا التساؤل الذي طرحه ، فيقول : « إن الإسلام هو الحضارة الرئيسية الوحيدة في العالم التي يمكن الجدال بأن لديها بعض المشاكل الأساسية مع الحداثة ، فالعالم الإسلاميّ يختلف عن غيره من الحضارات في وَجْه واحد مهم ، فهو وحده قد وَلَّدَ تكرارًا خلال الأعوام الأخيرة حركات أُصولية مهمة ، ترفض لا السياسات الغربية فحسب ، وإنما المبدأ الأكثر أساسية للحداثة : التسامح الدينيّ .. والعلمانية نفسها . وإنه بينما تجد شعوب آسيا وأمريكا اللاتينية ودول المعسكر الاشتراكي السابق وإفريقيا الاستهلاكية الغربية مغرية ، وتود تقليدها ، لو أنها فقط استطاعت ذلك ، فإن الأصوليين والمسلمين يرون في هذه الاستهلاكية دليلاً على الانحلال الغربي » .

فالرفض الإسلاميّ ليس فقط لظلم السياسات الأمريكية والغربية ، وإنما هو للتبعية لمنظومة القيم الغربية .

ولذلك يُقِلِن « **فوكوياما** » أن هذه الحرب التي أعلنتها أمريكا والغرب على الإسلام المقاوم ، ليست حربًا على « جماعات العنف العشوائي » ، ولا على هذا الذي سَمَّوه « إرهابًا » ، وإنما هي حرب على الإسلام الرافض للحداثة الغربية والعلمانية الغربية والاستهلاكية الغربية .. يعلن ذلك في « صراحة عارية » - يحمد عليها - فيقول : « **إن المسألة ليست ببساطة حربًا على الإرهاب ، كما تظهرها الحكومة الأمريكية بشكل مفهوم - [؟ !] - وليست المسألة الحقيقية - كما يُجَادل الكثير من المسلمين - هي السياسة الخارجية الأمريكية في فلسطين ، أو نحو العراق . إن الصراع الأساسيّ الذي نواجهه ، لسوء الحظ ، أوسع بكثير ، وهو مهم ، ليس بالنسبة إلى مجموعة صغيرة من الإرهابيين ، بل لمجموعة أكبر من الراديكاليين الإسلاميين ، ومن المسلمين الذين يتجاوز انتماؤهم الديني جميع القيم السياسية الأخرى . إن الصراع الحاليّ ليس ببساطة معركة ضد الإرهاب ، ولا ضد الإسلام كدين أو حضارة ، ولكنه صراع ضد العقيدة الإسلامية الأُصُولية التي تقف ضد الحداثة الغربية . وإن التحدي الذي يواجه الولايات المتحدة اليوم هو أكثر من مجرد معركة مع مجموعة صغيرة من الإرهابيين ، فبحر الفاشية الإسلامية الذي يَسْبَحُ فيه الإرهابيون يُشَكِّلُ تحديًا إيديولوجيًّا في بعض جوانبه ، أكثر أساسية من الخطر الذي شكلته الشيوعية** » !!

ثم يتحدث « فوكوياما » عن « التطور الأهَم » الذي يجب أن

يَحْدُثَ للإسلام ذاته ، والذي يجب أن يتم داخل الإسلام ، لتعديل الإسلام حتى يصبح قابلًا للحداثة الغربية والعلمانية الغربية والاستهلاكية الغربية ، فيقول : « **إن التطور الأهم ينبغي أن يأتي من داخل الإسلام نفسه ، فعلى المجتمع الإسلاميّ أن يُقَرِّر فيما إذا كان يريد أن يصل إلى وَضْعٍ سلميّ مع الحداثة ، خاصة فيما يتعلق بالمبدأ الأساسيّ حول الدولة العلمانية** » .. أم لا ؟ ! [١]

فالقضية - في التحليل الأعمق - ليست « إرهاب » جماعات العنف العشوائيّ ، ولا هي « قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١م » ولا حتى السياسة الخارجية الأمريكية المعادية لقضايا المسلمين العادلة ، فكل ذلك تجليات للصراع بين المشروع الغربيّ وبين النزوع الإسلاميّ إلى التمايز الحضاريّ ، والاستقلال القيميّ والثقافيّ ، الذي يرفض الهيمنة الغربية التي تفرض حداثتها وعلمانيتها على العالم ، بما في ذلك عالم الإسلام .

وحتى لا يخلط الوهم بين هذه « الحداثة الغربية » - التي تقيم قطيعة معرفية كبرى مع الموروث الدينيّ ، وبين « التجديد الإسلاميّ » الذي يستصحب الثوابت ويطور في المتغيرات ، نسوق كلمتين لاثنين من دعاة هذه الحداثة في بلادنا :

أولاهما : كلمة « هاشم صالح » المتخصص في ترجمة وتسويق المشروع الحداثيّ للدكتور محمد أركون ، فلقد كتب - عَقِبَ قارعة سبتمبر - داعيًا إلى انتهاز فرصة الهجمة الغربية على الإسلام ، لتبني

---

(١) « النيوزويك » - العدد السنوي - ديسمبر سنة ٢٠٠١م - فبراير سنة ٢٠٠٢م .

الحداثة الغربية ، التي أحَلَّت وتُحلُّ « الدين الطبيعيّ » محلَّ « الدين الإلهيّ » !! فقال : « إننا يجب أن نلتحقَ بفولتير [١٧٣٤ - ١٧٧٨م] وتصوره الطبيعيّ عن الدين والأخلاق ، فالدين الحقيقيّ هو الدين الطبيعيّ . وإن العبرة هي بأعمال الإنسان وليس بمعتقداته ، أو حتى صلواته وعباداته . ولا بدّ من تأويل جديد لتراثنا يختلف عن تأويل الأُصُولية ، بل وينقضه ، تأويل يكشف عن تاريخية النصوص التأسيسية ، ويحلّ القراءة التاريخية محلَّ القراءة التبجيلية لهذا التراث » ! (١)

أما الكلمة الثانية : فهي للدكتور « علي حرب » ، الذي قال عن حداثة مشروع « أركون » و « هاشم صالح » : « إنها القول بمرجعية العقل وحاكميته ، وإحلال سيادة الإنسان وسيطرته على الطبيعة مكان إمبريالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون .. » (٢) !

فالعدوّ - عند المشروع الأمريكي - هو الإسلام المقاوم للعلمانية الغربية والحداثة الغربية والاستهلاكية الغربية . أي الإسلام المقاوم للمسخ الغربيّ والأمريكيّ .

والعدوّ - عند الحداثيين الذين يحملون الأسماء المسلمة - ليس الإمبريالية الأمريكية وهيمنتها ، وإنما « إمبريالية الذات الإلهية وهيمنتها على الكون » .. ولا حول ولا قوة إلا بالله !!

* * *

(١) « صحيفة الشرق الأوسط » في ٢٦ - ١٢ - ٢٠٠١م .

(٢) صحيفة « الحياة » في ١٨ - ١١ - ١٩٩٦م .

هذه هي حقيقة الموقف الذي نحن فيه ، وحقيقة التحدي الذي نواجهه الآن . صحيح أنه يُشبِه « الكابوس » خصوصًا إذا رأيناه في ضوء حال الأمة ـ حكامًا ومحكومين ـ وفي ضوء نجاح الغرب في استغلال مشكلة الأرثوذكسية الروسية مع المسلمين الشيشان ، ومشكلة الهندوسية الهندية مع المسلمين في « كشمير » ، ومشكلة الكونفشيوسية الصينية مع المسلمين في تركستان الشرقية ، نجح الغرب في استغلال هذه المشكلات لإقامة تحالفات ـ بعض أطرافها متعاون وبعضها صامت ـ في هذه الحرب الغربية على الإسلام ، حتى ليتذكر المُحَلِّلُ للموقف الراهن مشورة « صموئيل هنتنجتون » سنة ١٩٩٣م على صانع القرار الأمريكيّ ، بتحييد الحضارات الأخرى ، وبدء صدام الحضارات أولًا بالإسلام !

إننا أمام هذا « الكابوس » ، في موقف شبيه بموقف المسلمين يوم غزوة الأحزاب ، عندما تحالفت كل أطراف الشرك ـ رغم ما بينها من تناقضات ـ مع اليهود ـ رغم ما بينهم وبين الشرك والوثنية من تناقضات ـ تحالفوا جميعًا ضد الدولة الإسلامية الوليدة والدين الإسلاميّ الجديد ، حتى لقد زاغت من الصحابة الأبصار ، وبلغت القلوب الحناجر ، وزُلزل المسلمون زلزالًا شديدًا ، من هول هذا « التحالف ـ الكابوس » .. بل وظنوا بالله الظنون ! ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴾ [الأحزاب : ١٠ ـ ١١] .

أو لكأننا أمام الحلف « الصليبيّ ـ التتريّ » ، الذي اجتاح فيه التتر

ودمروا مشرق العالم الإسلاميّ ، وهددوا بقية الوجود الإسلاميّ في مصر والمغرب ، يوم أعلنوا - بعد تدميرهم لبغداد والمشرق - : « لقد فتحنا بغداد وقتلنا فرسانها ، وهدمنا بنيانها ، وأسرنا سكانها » .. ثم وجهوا التهديد لمن بمصر ، قائلين : « إنهم إن كانوا في الجبال نسفناها ، وإن كانوا في الأرض خسفناها » !! وأرسل « هولاكو » [١٢١٧ - ١٢٦٥ م] إنذاره إلى الملك المظفر « قطز » [٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م] قائلًا فيه : « لقد فتحنا البلاد ، وقتلنا معظم العباد .. فأي أرض تؤويكم ، وأي طريق ينجيكم ، وأي بلاد تحميكم ؟! فما لكم من سيوفنا خلاص ، ولا من مهابتنا مناص ، ونحن ما نرحم من بَكَى ، ولا نرق لمن اشتكى ! فخيولنا سوابق ، وسهامنا خوارق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال ، وعددنا كالرمال ، فمن طلب حربنا ندم فاتعظوا بغيركم ، وسلموا إلينا أمركم ، وعليكم بالهرب ، وعلينا بالطلب .. ولقد أعذر من أنذر » !! حتى لقد حسب الناس يومئذ « أن القيامة قد قامت » !! [(١)] .

فما كان من العلماء والأمراء والخاصة والعامة إلا أن نفروا للجهاد ، فكان نصر الله في « عين جالوت » [٦٥٨ هـ - ١٢٦٠ م] ، وانهزم التتار لأول مرة في تاريخهم .. ثم دخلت دولتهم وقبائلهم بعد ذلك في الإسلام .

(١) المقريزيّ . السلوك لمعرفة دول الملوك / تحقيق محمد مصطفى زيادة . - القاهرة ، ١٩٥٦ . ج ١ ، ق ١ ، ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ .

والآن ما العمل ؟

ما العمل أمام هذا « التحالف ـ الكابوس » ، الذي جَمَعَ على الإسلام وأمته وحضارته « أحزاب القرن الواحد والعشرين » ، كما اجتمعت عليها الأحزاب في تاريخها القديم والوسيط ؟! .. حتى لقد أصبح الإسلام ـ بنظرهم ـ متهمًا ، والمسلمون يعاملون كما كانوا يعاملون من قبل « محاكم التفتيش » ! صحيح أن أمتنا في موقف شبيه بموقفها يوم غزوة الأحزاب [٥ هـ / ٦٢٧ م] ولكن دون أن تكون لها القيادة النبوية ، ولا جند الجيل الفريد الذين صَنَعَهم على عينه رسول الله ﷺ ، لكن .. هل نحن اليوم أقل من المماليك أمام التتار ؟!

إننا نملك المنهاج الإسلاميّ ، الذي تعامل المسلمون على هديه ووَفْق سننه مع حصار غزوة الأحزاب ، ومع حملات الصليبيين والتتار . المنهج الذي يقول : إن هذه التحديات الشرسة التي تواجه الإسلام اليوم ، إنما هي التعبير عن أننا بإزاء ظاهرة صِحِّيَّة ، ولسنا بإزاء حالة مرضية ، إننا بإزاء أمة تستيقظ ، لتنفلت بدينها وحضارتها وعالمها من المأزق الحضاريّ الذي يأخذ منها بالخناق .. مأزق الوهن أمام التخلُّف الموروث والهيمنة الغربية . وما هذه التحديات الشرسة إلا محاولات الغرب لإجهاض يقظة أمة الإسلام ، وإلا فلو كانت أمتنا ميتة وميئوسًا من إحيائها وحياتها لما تداعت عليها كل أحزاب العصر ، ولما ضربوها بهذه القسوة .. « فالضرب في الميت حرام » ـ كما يقولون ـ وهو لا يستأهل ما يُبذل فيه من جهد ، ولا ما يُنفق عليه من أموال ! وإذا كان هناك من يَشُكّ أو يُشَكِّكُ في هذه الحقيقة ، فليُعِدْ قراءة هذا الذي كَتَبه المفكرون الاستراتيجيون الغربيون ـ والذي

أوردناه ـ عن أن هذه الحرب إنما تُشَنُّ على أمتنا لأنها الوحيدة على النطاق العالميّ العصية والمستعصية على الانصياع للتغريب ، والقبول بالحداثة الغربية والعلمانية الغربية والاستهلاكية الغربية والقيم الغربية ، اعتصامًا بخصوصياتها الإسلامية ، واستمساكًا بمنهاج الإسلام . فنحن نُضْرَبُ لأننا نقاومُ ما يريدُه بنا ولنا جبروت « أحزاب القرن الواحد والعشرين » ! وهذا « المنهج : السنة والقانون » هو الذي اهتدى به المؤمنون يوم الأحزاب ، وتَحَدَّثَ عنه القرآن الكريم عندما أشار إلى هؤلاء الذين زاغت منهم الأبصار وبلغت قلوبهم الحناجر ، وظنوا بالله الظنون ، وزُلزلوا زلزالًا شديدًا ، فقال : ﴿ وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٢٢] .

إن هذه الحرب المعلنة ضد الإسلام ، من قِبَلِ مشروع الهيمنة الغربيّ ، منذ ظهور الإسلام حتى هذه اللحظات ، هي سُنَّة إلهية من سنن الابتلاء والاختبار والتدافع بين الحق والباطل ، ليس لها تبديل ولا تحويل ، ولن تقف عند نهايات هذا الطور الذي نواجهه الآن : ﴿ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ ﴾ [البقرة : ٢١٧] ﴿ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔوا۟ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [التوبة : ٣٢] . وإذا كان الله ـ سبحانه وتعالى ـ قد حَفِظَ دينه ، فإن إقامةَ هذا الدين هي مهمة المؤمنين به ، وكذلك إعمال السنة الإلهية في التدافع الحضاريّ والفكريّ لا يتم إلا بواسطة الذين ينهضون بوضع هذه السنن ـ بعد فقهها والوعي بها ـ في الممارسة والتطبيق بأرض الواقع المعيش ، وليس فقط بالأماني وعلى الألسنة والأوراق : ﴿ لَّيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ

وَلَآ أَمَانِيِّ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ ۗ مَن يَعْمَلْ سُوٓءًا يُجْزَ بِهِۦ وَلَا يَجِدْ لَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء : ١٢٣] .

لذلك فنحن ـ أمام هذا « الكابوس » ـ بإزاء عدد من الخيارات :

أولها : خيار الاستسلام ، يأسًا وقنوطًا من روح الله ونصره ، وهو خيار بائس ، ينسى أصحابه أننا لسنا بإزاء شيء جديد غير مسبوق في تاريخ الإسلام والمسلمين ، وإنما أمام « دورة » من دورات التدافع والصراع ، واجهتْ أمتُنا أسوأ منها ، وتعاملتْ مع ما هو أشد قسوة منها ، فكان تاريخ الشرق الإسلاميّ دائما وأبدًا ، مقبرة الغزاة والإمبراطوريات ، من الرومان حتى الإمبراطوريات الغربية الحديثة . وذلك فضلًا عن أن هذا اليأس ـ الذي لا يقرأ أهله ولا يَعُون سنن التاريخ ـ يُخرجهم ـ والعياذ بالله ـ من حظيرة الإيمان بحقيقة الإسلام ﴿ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [يوسف : ٨٧] .

والخيار الثاني : هو خيار « العنف العشوائيّ » ، وهو خيار يَحْرِمُ قضايانا العادلة من أصدقاء كثيرين ـ حتى في إطار الشعوب الغربية وتيارات الفكر الغربيّ ـ فضلًا عن أنه يُسيءُ إلى حقيقة الجهاد الإسلاميّ ، ناهيكم عن عدم جدواه أمام شراسة التحديات التي تواجهها أمتنا في هذا المنعطف من منعطفات المواجهة بين الفرعونية القارونية الأمريكية وبين الإسلام ، بل لربما أعطى هذا « العنف العشوائيّ » بعض الذرائع لهذه الفرعونية كي تستر بعضًا من مقاصدها الكالحة واستبدادها القبيح .

أما الخيار الثالث : فهو خيار المقاومة الإسلامية لهذه التحديات الغربية بالمعنى الشامل للمقاومة . ونقطة البداية في هذه المقاومة هي « إرادة الصمود » ، التي هي المعيار الحقيقيّ والفارق الجوهريّ بين النصر والهزيمة ، فهناك أمم انكسرت إرادتُها في الحروب والمواجهات ، فلم يعوضها عن انكسار الإرادة وفرة أسباب القوة المادية ـ كاليابان مثلاً ـ وهناك حالات تتعاظم فيها إرادة الصمود كلما تعاظمت شراسة التحديات ، والحالة الإسلامية نموذج جيد لهذا النوع ، والحمد لله .

وبعد « إرادة الصمود » ، تلزمنا « الإدارة » التي ترمم وترتب « البيت العربيّ والإسلاميّ » ، في إطار الحد الأدنى الذي يُعَظِّم الإمكانات العقدية والفكرية والبشرية والمادية الهائلة التي تملكها أمتنا .

وهذا الاجتماع العربيّ الإسلاميّ على هذا الحدّ الأدنى من التضامن ، ليس لمحاربة أمريكا والغرب ، فنحن لا نريد ذلك ، ولا قِبل لإمكاناتنا بمثل ذلك ، وإنما نريد هذا الحد الأدنى من التضامن لتحسين أوراقنا ومواقع أقدامنا أمام هذه التحديات ، ولتمكننا من التدافع ، الذي هو حراك يعدل الموازين ، ويغير المواقف ، ويُحَسِّن الأوضاع ، ويزيل الخلل الفاحش ، ويُكثِّر الأصدقاء ، ويُقَلِّل الأعداء ، أو يحيِّد بعضهم ، دون أن يبلغ حد الصراع والقتال ﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴾ [فصلت : ٣٤] .

إننا نريد المقاومة ، بمعناها العام ، والجهاد بمعناه الشامل ، وليس القتال أو الحرب ، بمعناهما الخاص . وَصدَقَ رسول الله ﷺ إذ يقول : « لا تتمنوا

لقاءَ العدوِّ ، واسألُوا الله العافيةَ ، فإذَا لقيتموهم فاثبتوا ، وأكثروا ذكرَ الله » ـ رواه الدارمي ـ . وإن تحقيق الحد الأدنى من التضامن والتكامل والتكاتف والتساند بين دول وإمكانات العالم الإسلاميّ ـ بدءًا ببعض الدول المحورية ـ هو الإعداد الذي يحقق الردع للأعداء فلا يطمعون في أن يبلغ الغي والتجبر الحدود القصوى ، وفي ذلك بداية التغيير لاتجاه الخط البيانيّ في معادلة العلاقة بين الإسلام وأمته وحضارته وبين التحديات الشرسة التي فَرَضَها ويَفْرِضُها علينا مشروعُ الهيمنة الغربية هذه الأيام .

* * *

تلك هي جذور المواجهة التي تعيشُها أمتنا الآن ، وهذه هي حقيقة صورة الإسلام في الخطاب الغربيّ ، وهذا هو المخرج من المأزق الذي أخذ منا بالخناق .. والذي تزيغ منه الأبصار .. وتبلغ القلوب الحناجر .. ويزلزل الكثيرين منّا زلزالًا شديدًا .

وعلينا أن نتذكر دائمًا وأبدًا ، أننا إذا قصرت بنا الهمم عن التأسي بصحابة رسول الله ﷺ يوم الأحزاب ، فحرام أن تقصر بنا الهمم عن التأسي بالمماليك أمام التتار !

والله نسأل أن يُهَيِّئَ لنا من أمرنا رشدًا ، وأن يهدينا إلى الأخذ بِسُننه في التدافُع والنصر . إنه سبحانه وتعالى خيرُ مسئولٍ وأكرمُ مُجيب .

تم الكتاب بحمد الله

قائمة المحتويات

مقدمة ٥
تمهيد ٨
- لسنا بإزاء خطاب غربيّ واحد فيما يتعلق بالإسلام ... ٨
- الخطاب الغربي عن الإسلام وأمته وحضارته ، ليس مجرد مقولات نظرية » ١٤
- نَزْعة « المركزية الغربية » ، التي لا تَعْتَرف بالآخر ... ١٦
التاريخ الصَّانع للصورة ٢٣
- محاولات الغرب إعادة اختطاف الشرق من الإسلام .. ٢٤
- ثقافة الكراهية السوداء تجاه الإسلام ونبي الإسلام ... ٢٩
وفي واقعنا المعاصر ٣٥
- قساوسة بروتوكولات التنصير وصناعة الكوارث في بلاد الإسلام ٣٦
- خطاب المشروع السياسيّ والحضاريّ الغربيّ المعاصر إزاء الإسلام ٣٩
بعد قارعة سبتمبر سنة ٢٠٠١ م ٤٥
والآن .. ما العمل ؟ ٥٩

رقم الإيداع	٢٠١٣ / ٢٨٤٥
الترقيم الدولي	ISBN 978-977-02-7710-2

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع)